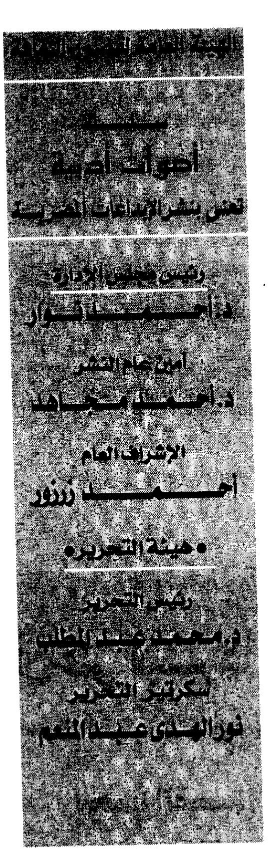
هذيـــان على قبـــرها

محمد القصبى



* هذيــان على قبــرها

* محمد القصبي

* (363)

* تصميم الغلاف للفنان: أحمد اللباد

* المراجعة اللغوية : سعاد عبد الحليم

محمود أبو عيشة

* الطبعة الأولى: ٢٠٠٦

* رقم الإيداع : ٣٢٤٥ / ٢٠٠٦

* المراسلات: باسم سكرتير التحرير على

العنوان التالى :

١٦ أ ش أمين سامى - قصر العينى القاهرة -

رقم بريدى : ١١٥٦١

شركة الأمل للطباعة والنشر

ت : ٣٩٠٤٠٩٦

* السلسلة غير ملزمة برد أصول الأعمال سواء نشرت أم لم تنشر *

هذيـــان على قبــــرها

محمد القصبى



هذيان على قبرها

إهداء...

إلى السيدة.. التى لولاها لما برحت أوراقى تلك دهاليز التردد..!!

البقية فى حياتك!!

أتطلع إليـهـا فى بلاهة.. تفلت الحـروف بمشـقـة من مسام نحيبها!!

- من بضع دقائق فقط... بين يدىّ!!

لم لا أبتسم..أضحك..أقهقه.. ذلك فحسب يعبر عما بداخلى... بعد ثلاثين عاما يخاطبنى أحدهم!

- البقية فى حياتك!

من ..؟ أنا..؟ فيمن... ؟! ..ولم... !!!

***

أقبع فى أحضـان جدتى..معركة ضارية أخوضـها بأسنانى أظفارى مع تسعة من إخوتى وأبناء عمومتى.. كى أفوز بحضنها، فى تلك الليلة لطمت الخدود وأنا أرى ابن عمتى يرفض أن ينهزم أمام ضرباتى وتوسلاتى بأن يتركها.. كان رذاذ المطر الذى لم ينقطع منذ الصباح

يروى مخاوفى فتنمو وتترعرع.. وتتعملق فى ساحاتى الداخلية ملائكة موت!! سألت جدتى أن تحكى لنا مزيدا من الحواديت.. لكنها نهرتنى... كانوا جميعا قد أغلقوا جفونهم إلا أنا ... وكل بضع دقائق أسألها شيئا... يرعبنى الليل... كل الذين ماتوا فى القرية.. لفظوا أنفاسهم وهم نيام ليلا!! ولماذا ليلا؟ سألت مقرىء القرآن خلال زياراته الأسبوعية لمنزلنا بعد أن فرغ من التلاوة .. فنهرنى وقال غاضبا:

- أليس لديك ماتسأل عنه سوى الموت...؟!

وهرول إلى خارج المنزل وهو يستعيذ بالله..!! هو أيضا مثلى يخاف الموت .. ومثلى ربما يرعبه الليل..!! (بعد سنوات عرفت أنه لا علاقة خاصة بين الليل والموت حين أجرت شركة تأمين كبرى دراسة شملت عددا هائلا من الوفيات... فثبت لها خرافة الاعتقاد السائد بأن نسبة الوفيات ليلا أكثر منها نهارا... فالموت يداهم الناس فى ساعات الليل والنهار على درجة واحدة!!).

يشق رذاذ المطر صوت يرعبنى.. كلب ينبح..آخر

يشاركه.. هل هبط ملاك الموت؟ على من؟! سمعت عمى يقول مرة لأحد أصدقائه إن الكلاب حين ترى «عزرائيل» يشتد نباحها.. أتخشب فى أحضان جدتى.. أوقظها متوسلا..تلكزنى بكوعها:

- نم أيها الشيطان.

- ألاتسمعين ياجدتى؟

- أسمع ماذا...؟!

- الكلاب تنبح.

تنتبه .. ترهف السمع... ثم تتمتم:

- يا لطيف يارب... الشيخ عبد الصمد.. لا أحد غيره.. الرجل ياولداه المرض قضى عليه... وربنا سيكرمه الليلة..!!

أحمد الله أنه ليس أنا..جدتى قالت إنه الشيخ عبد الصمد... هدأت سريرتى... واستسلمت للنوم...بعد أن عرفت مَنْ المستهدف بزيارة عزرائيل فى تلك الليلة... وفى الصباح استيقظت مفزوعا على صراخ وعويل فى منزلنا... اكتشفت أمى حين جاءت لتوقظنا أن جدتى قد

ماتت..!!

تتخبط سنوات طفولتى فى ليل مفزع طويل لا يسكنه أحد سواى.. ونباح كلاب يطويها الظلام تمزقنى رعبا... وملاك موت يعيش فى مسامى هلعا ولاأراه أبدا..!! وحين شببت رأيت فى المقابر مكانا مثاليا لاستذكار دروسى.. تتوقف عينى عن السير عبر سطور الكتاب.. وما كنت قد استذكرت بعد سوى صفحتين... أرهف السمع جيدا... بكاء خافت من بين زحام القبور... دهشت ، فقبور قريتى دائما غارقة فى صمت المتأمل..إلا حين تكون فى استقبال نزيل جديد... كان هذا هو السبب المعلن الذى أواجه به الأصدقاء حين يسألوننى: أليس ثمة مكان آخر أفضل للاستذكار من جوار المقابر ..؟! أشق طريقى بحذر عبر الطريق الترابية المحاصرة لحقل الذرة... وقبل انتهاء الطريق.. وخلف صف من المقابر المنخفضة لمحتهم.. مجموعة من تلاميذ المدرسة الابتدائية التى تبعد بضع مئات من الأمتار.. كانوا يهيلون التراب فوق شىء لم أتبينه بعد.. اقتربت بحذر..

لم أصدق ما أرى... طفل يطل وجهه من بين التراب بعينين نصف مغمضتين فى استسلام غريب للانطفاء الأبدى.. انقضضت عليهم... فروا فى فزع.. هرعت نحو الحفرة... أزيح التراب من حول هذا الجسد النحيل الميت إلا قليلا... ! حملته إلى منزله.. فما كانت قدماه قادرتين على حمله... وكان لسانه أوهى من أن يجيب على سؤال كان يلح علىّ:! بماذا كان يشعر وهم ينفذون ضده حكم الإعدام ؟.. لم يجبنى... وبعد أسابيع.. وبعد شهور.. وبعد سنوات ظللت أطارده بذات السؤال... وقط لم يجبنى.. لكنه أجابنى على سؤال آخر لم أهتم بطرحه.. لماذا ؟! فقد اعتاد هؤلاء المجرمون الصغار أن يسلبوه مصروفه اليومى تحت التهديد.. وحين قرر أن يقول مرة واحدة لا؛ استدرجوه بعد انتهاء اليوم الدراسى إلى المقابر... وأصدروا حكمهم الرهيب..!!

***

سيد أبو عطوة .جارنا العملاق الذى تسلل من بوابة المدرسة فارا إلى الجيش حيث تطوع فى الكتاب

العسكرى رغم إرادة أهله... هو أيضا حكموا عليه بالموت... نهره الضابط فى طابور الصباح فقتل الضابط وسبعة جنود آخرين بمدفعه الرشاش.. كنت أود أن أصطحب أهله.. وهم يزورونه للمرة الأخيرة... لأدقق فى وجهه.. فى خلاياه .. قبل ساعات من وقوفه معصوب العينين فى مواجهة فرقة ضرب النار... كنت أود أن أكون بجواره فى ساحة الإعدام، تفصله عن الدنيا عصابة سوداء.. وعن الآخرة بضع لحظات من الصمت الذى تمزقه رصاصات كتيبة الإعدام..

راودتنى تلك الفكرة المجنونة بأن أنحنى على جثته بعد أن يهوى... وأفك أزرار بنطاله... لأرى هل صحيح أن المحكوم عليه بالإعدام يمنحهم الله فى لحظاتهم الأخيرة لذة هائلة فيقذفون؟ لقد قرأت هذا يوما فى مجلة علمية...؟!

سألت أخاه بعد إعدامه بعدة أشهر : كيف كان يبدو فى زيارتكم الأخيرة له..؟!

تهلل وجهه.. وقال بفخر أدهشنى : هل تصدق..؟!

كان فى حالة اطمئنان كامل... كأن وجهه يفيض بنور لم نلحظه عليه طوال عمره... تحدث معنا كثيرا عن ذلك... قال إنه يشعر بصفاء نفس لم يشعر به فى حياته... وإن حالة السكينة التى تهجع فيها نفسه فى أيامه الأخيرة لو لازمته من زمن بعيد لاتخذت حياته مسارا آخر.. لم يبد عليه قط أنه يخشى فرقة ضرب النار.

(وصدقته ... تلك الحالة من الطمأنينة أيضا لازمت «باسكوال دوارتى» وهو حتى بين يدى قسيس سجن بطليموس فى لحظاته الأخيرة قبل أن يعدم... يقول قسيس سجن بطليموس واصفا حالة « باسكوال دوارتى» قبل أن يتوجه إلى «سقالة الإعدام» : لقد ربط أعمال النفس بالهدوء ورباطة الجأش مما جعلنى مذهولا.. ونطق أمام الجميع عندما جاءت لحظة إدخاله إلى الساحة جملة : « فلتمض إرادة الله» وهذا جعلنا أيضا نتعجب من تواضعه المهذب.. خسارة أن العدو سرق منه لحظاته الأخيرة وإلا فقد كنت متأكدا أن موته يشبه موت القديسين.. لقد كان موته نموذجا لكل من شاهدوه حتى

فقد السيطرة على نفسه.. كما أقول..

ويتحدث «تيساريو مارتين» عضو الحرس المدنى المعين فى سـجن بطليمـوس ، عن لحظات باسكوال دوارتى الأخيرة بصورة أكثر تفصيلية:

...وبالرغم من أنه فى البداية كـان يبدو هادئا ونطق أمـام كل الناس جـملة «كله بإرادة الله» مما جـعلنا مندهشين إلا أنه نسى فجأة كيف يحتفظ برباطة جأشه.. وعندما رأى «سقالة الإعدام» أغمى عليه.. لمّا عاد إلى وعيه كان يطلق أصواتا تقول إنه لا يريد أن يموت وإن ما يفعلونه معه ليس من العدل... ومن ثم فقط نقل رغم أنفه إلى الدكة... وهناك قّبل لآخر مـرة الصليب الذى أخرجه له الأب «سانتياجو»..وقد انتهت أيام باسكوال وهو يبصق ويضـرب الأرض برجله.. دون أية عناية من جانب المحيطين به... وبأكثر الطرق حطة وسفالة مما يمكن أن ينتهى به إنسان وهو يظهر للجميع خوفه من الموت.

«هل تخلت عن «سيد أبو عطوة» أيضا شجاعته

وسكينته التى تحدث عنها أخوه... حين رأى فرقة ضرب النار تصطف فى مواجهة الجدار الذى اقتيد إليه.. ؟! أظن ذلك.. ففى مواجهة الموت إعداما، جميعنا ربما نكون باسكوال دوارتى..!!

وقريبتى ألفت... استطعت أن أقترب منها... وأتحسس مشاعرها فى اللحظات الأخيرة... كانت تعانى من متاعب خطيرة فى القلب... نصحها الأطباء بألا تتزوج كى تعيش طويلا... فإن تزوجت يختصر عمرها إلى سنوات قليلة... ولأنها سيدة مهذبة شكرتهم على نصيحتهم الهامة... وحسن عنايتهم بها... وتزوجت .. من هذا الشاب الذى أحبته واختصرت سنوات عمرها كثيرا من أجل أن ترتبط به...ولقد قال لها حين أطلعته على نصائح الأطباء:

- العمر يقاس بلحظات السعادة التى نعيشها... لهذا أعتقد أنك ستخلدين..!!

وأنجبا طفلة جميلة..وعلى فراش الموت- بعد ثلاث سنوات من زواجها- تسللت بين زحام أهلها... وسألتها

فى غفلة منهم:

ـ ألاتشعرين بالندم..؟ كان هذا اختيارك.

ونظر إلىّ زوجها الذى كان يجلس على حافة الفراش باستهجان .. وقال فى شيء من الغضب:

ـ ماذا تقول..؟! إنها أزمة بسيطة وستنهض منها بإذن الله...

لكنها استجمعت طاقتها لتبتسم... وربتت على كف زوجها فى حنان كأنها تشكره على محاولاته اليائسة ليزرع بين جوانحها الأمل... ثم قالت معقبة على سؤالى:

ـ هل سمعتهم..؟! هل سمعت الطبيب..!! الجميع يطمئنونى.. أزمة وتمر..أنت الآن بخير... بعد عدة أيام تستعدين صحتك .. لكننى لا أصدقهم... أعرف أننى سأموت...ربما بعد أيام أو ساعات أو حتى دقائق... ربما غدا أكون فى قبرى... أو حتى الليلة... ولست نادمة..!!

ـ ولا خائفة..؟!

ـ واجهت الموت ليلة أمس... قالوا إنها غيبوبة.. لكنه الموت.. شعرت كأننى أنزل بمشقة ومعاناة داخل نفق

مظلم.. شديد الظلمة ..ألم هائل اجتاحنى.. لكن فى النهاية لمحت بصيص نور... الظلام يتلاشى... عالم آخر أتوحد فيه... نوره يعمى العيون.. لكننى لا أتذكر أنه كان لى عيون فى رأسى.. . بل لم يكن لى رأس... لم أكن شيئا محددا... كينونة مرهفة الأحاسيس والحواس... ليست مجسدة... تستعذب السباحة فى لجة نورانية لا نهائية... وصدقنى حين أقول إننى أشعر بالندم لأننى عدت.

وأنت أيضا رويت لى فى انبهار تفاصيل الرحلة الغريبة عبر النفق المظلم إلى عالم من نور... كان ذلك قبل رحيلك بأيام ثلاثة.. وأتذكر الآن حيرتك الهائلة... وأنت تعانين فى البحث عن ألفاظ تصف بدقة مشاهداتك حين اقتربت من حافة الموت فى تلك الليلة.وحين عجزت كل القواميس أن تمدك بالكلمات الملائمة .. قلت فى يأس:

ـ حتى الأدباء لا أظنهم قادرين على وصف هذا العالم الآخر. وصدقنى حين أقول إننى أشعر بالندم لأننى عدت..!!

***

صديق طفولتى.. جندى الصاعقة الذى انهمر عليه

الرصـاص من دورية إسـرائيليـة لأكثـر من عـشـر دقـائق خـلال إحـدى العـمليـات التى شـارك فـيـهـا خـلال حـرب الاستنزاف..أيضا أسـأله... فيبتسم ويسـألنى بدوره:

ـ أما زال الموت يشغلك ؟

ـ ليس بالأمر الهين كى أطرحه جانبا..!!

ـ هل تتذكر .. فى كل جنازة نسير فيها..ونحن نتخطى شارع الجامع الذى يقود إلى مقابر القرية... كنت تردد نفس العـبـارة.. «الشـارع الوحـيـد الذى علينا أن نسلكه جميعا..ولو مرة واحدة.»..!!

ـ يقول أحد الفلاسفة إن مشكلة البعض تكمن فى أنهم يفكرون أكثر مما ينبغى!!

– وأنت واحد من هؤلاء البعض..!!

ـ لم تجبنى على سؤالى: بماذا كنت تشعر والموت كان أقــرب إليك من جلدك فـى المعــركــة الأخــيــرة مـع الإسرائيليين؟!

ـ لا أدرى .. لكن أظن أن الإنسان كلما نأى عن حافة الموت يخـافـه.. وحين يقـترب منه... ولا يـفصله عنه حـتى

شعرة معاوية، يتجرد من كل الأحاسيس... ويتساوى أمامه الموت والحياة..!!

ومات صديقى فى الأيام الأولى لحرب أكتوبر... وخرق ناموس قريتنا.. ولم يشق فى رحلته الأخيرة إلى المقابر شارع الجامع.. فقد وارى زملاؤه جثته تراب سيناء حيث استشهد... ومكثت عدة سنوات أروى بطولاته.. وفى أعماقى لم أصدق قط أنه مات..وحين صدقت.. . انفجرت ضاحكا .. لقد رأيته بعد ذلك بسنوات ... ليس وجهه المشرب بلون طمى النيل أو بزة الصاعقة التى كانت تخترق قلوب عذارى القرية قنابل من الجمال الرجولى تنفجر ليلا فى مخادعهن شظايا من التنهدات والأحلام.. لكنه جاءنى خاطرة مكتملة التكوين.. أستغرق فى لحظات طويلة كأنها الدهر.. كنت مستغرقا معه فى داخلى..وأيضا لست بغائب عما يحدث حولى... صراخ وعويل ونساء تتقلص وجوههن من خوف هستيرى حتى تكاد تنفصل تقاسيمها عن بعضها البعض..وأطفال يبكون ويصرخون ويتشبثون بمن حولهم وكتل من

الأجسام الملتصقة تهتز فى جميع الاتجاهات.. كأن سيارة الأتوبيس قد أصبحت أرجوحة فى يد شيطان... وفجأة يقف الأتوبيس .. يتلاشى الصراخ.. يتحول إلى نحيب مفزوع.. والعجوز الذى يجلس خلفى بدلا من الشهادة يتلو عبارات الحمد والشكر... هرع الركاب إلى الأبواب يغادرون هذا الجحيم... دار السائق والمحصل حول سيارة الأتوبيس دورتين للمعاينة.. وعند العجلة الأمامية من الجهة اليمنى توقفا... وأشار السائق بيده إلى جذع شجرة ضخم يبرز من الأرض بما يقرب من نصف المتر.. وقال:

- لم يفصلنا عن الموت سوى جذع الشجرة هذا... فلولاه لاندفعت السيارة إلى الترعة.

فقال الشيخ العجوز بشفتين مرتعشتين:

- ستر الرحمن وليس جذع الشجرة يابنى..

أخذ السائق يشرح تفاصيل دقائق الموت الرهيبة: حمار برز فجأة من بين الأشجار .. حاولت أن أتفاداه ففوجئت بسيارة لورى قادمة... انحرفت بسرعة حتى

أتفـادى اللورى... لكن الأتوبيس كـاد ينحـدر من على الطريق مندفعا نحو الترعة لولا جذع الشجرة..

حـاولت أن أتذكر أين كنت من خـريطة الفـزع تلك.. كان معظم الركاب نياما... وكنت وجارتى الطالبة بكلية دار العلوم نتبادل حديثا ضاحكا.. كنت أتابعها وهى تتحدث عن أستاذ يدرس لها... أعرف الرجل... كان منفردا بشخصيته المعقدة... وكنت أضحك بصدق على تلك الصورة الكوميدية التى تحاول أن تقدمه لى من خلالها.. لكنها فجأة صرخت... تشبثت بى... تجولت عيناى فى بلاهة بين الوجوه الفزعة المحتضرة... اقتحمنى صديقى ضابط الصاعقة .. ليذكرنى بما قاله لى من قبل:

ـ الإنسان كلما نأى عن خطر الموت يخافه... وحين يقترب منه.. ولا يفصله عنه شعرة معاوية يتجرد من كل الأحاسيس.. ويتساوى أمامه حتى الموت والحياة..!!

وحين عدنا إلى الأتوبيس ..حاولت جارتى الطالبة أن تستعيد هدوءها ... حاولت أن تعلق على ما حدث

بأسلوبها المرح... لكنها توقفت فجأة وسألتنى:

- شىء غريب ..كل الأتوبيس تحول إلى مأتم.. أما أنت فكنت تتابع ما يجرى بهدوء... كأنك تشاهد فيلما مسليا... ألا تخشى الموت؟

ضحكت .وقلت:

- بلى ..أخشى الموت لكنها شعرة معاوية.. إن أوشكت على الانقطاع .. لا أخشاه!!

«والدى.. ربما كان يودع حتى الأيام الأخيرة من خريفه».. هذه العبارة كتبتها بألم شديد.. لأننى لست مؤهلا للتصديق بأنه يمكن أن يرحل..

أحاول أن أمزح معه..لكن مزاحى كان فى الحقيقة موار التساؤلات فى قرارى:

- لو كنت مكانك يأبى.. لشعرت بالاطمئنان والارتياح حين تزف الساعة ... أولادك ماشاء الله كلهم فى وظائف مرموقة ... وأحفادك يتناثر لهوهم حولك كالزهور اليانعة.. كانت رحلة كفاح موفقة.

ويبتسم ، ولم يفطن إلى ما أرمى إليه:

ـ الحمد لله.. لكن مازالت لدى رغبة واحدة.. أن تساعدونى فى استكمال إعداد المقابر الجديدة للأسرة.. أشعر أن أجلى قد حان.. أود أن أكون ضيفها الأول..!! يتحدث عن المقابر بعفوية غريبة.. كأن الأمر يتعلق ببناء منزل أو شراء قطعة أرض.. أو كأن القبر قصر جديد... يود أن يكون أول قاطنيه... حققنا له ما أراد.. شيدنا المقابر الجديدة.. لكنه أبدا لم يكن ضيفها الأول!! ولقد رأيته من ثغرة فى لجة الدموع فى عينى... كان يقف على حافة مقابره الجديدة.. وآخرون منهمكون فى إعداد أولها لترقدى فيه بسلام.. تخترقنى حكمته المشوبة بسخرية مريرة:

ـ أنت تريد ..وأنا أريد.. لكن الله يفعل ما يريد..!!

ولا أظن أن أحدا فهم كلماته سواى..!

حكيت فى مرارة ما حدث لصديقى الصحفى الساخر أحمد الهوارى وسألته:

ـ ما تفسيرك لاهتمامنا الأزلى بالمقابر..؟ إن أبى فعل بالضبط ما فعله خوفو..!!

ولم يرد ... لكن عينيه لمعتا فجأة، ثم قال فى حماس

- سأرشح نفسى لانتخابات نقيب الصحفيين القادمة... وحتما سأفوز..!!

سألته فى دهشة:

- ولماذا حتما؟ وما علاقة ذلك بسؤالى؟

- سأرفع شعار قبر لكل صحفى.. اغراء لا يقاوم... شعار يضمن لأية حملة انتخابية النجاح.. فى هذه المدينة الغريبة لا يهتم الناس بهاجس الحصول على شقة بقدر ما يشغلهم هاجس الحصول على مقبرة تلمهم بعد الموت..!!

***

وفى ليلة سحب فيها «جارسيا ماركيز» النوم من بين جفونى.. وحين وقف بطله العقيد «أورليانو» فى مواجهة فرقة ضرب النار لهثت خلف الكلمات..

- هل سيعدم..!! يا أيتها السموات! اشمليه بعنايتك..!! واستجابت السموات لدعواتى..ولم يعدم حين تدخل «جوزيه أوريكادو» ببندقيته العتيقة ... وأجبر قائد كتيبة

الإعدام أن يأمر جنوده بإلقاء السلاح ونمت على وسادة الوهم بالارتياح لأن العقيد أورليانو لم يعدم... لكنهم جاءوا مرة أخرى... وقفوا صفا منتظما .. أشهروا بنادقهم ... تأهبوا ـ كان الذى يرتدى بزة العقيد أورليانو الناضحة بإفرازات تقيحاته ودماملِه... ودماء الاثنتين والثلاثين حربا التى خسرها جميعا.. أنا!!

لهثت عينى فى كل الاتجاهات بحثا عن جوريه أوريكادو وبندقيته العتيقة... لكنه لم يظهر ... هموا بالضغط على الأزندة؛ صرخت... لم ينطلق الرصاص... ولم تنطلق الصرخة... وتبخر لهاثى فى أحضانك الدافئة وأنت تضمينى فى حب .. وشفاهك ترتل فى أذنى البسملة والتعوذ من الشيطان الرجيم. ـ وحكيت لك حلمى المزعج وسألتنى مبتسمة:

ـ أمازال صغيرى يخشى الموت..؟!

قلت ولا أدرى إن كنت أسخر أم أقول الحقيقة:

ـ نعم..إلى أن يعود أحدهم... ويحكى لنا ماذا هناك!!

ـ لكن أحدا لم يعد!!

- تلك هى المشكلة!!

- وهل نحن فى حاجة إلى أن يعود أحدهم ليحكى لنا..؟! المؤمن الصادق يعرف ماذا هناك... يقبل التفسير الدينى الذى به تطمئن القلوب...!!

- ألست مؤمنًا..؟!

- لو كان إيمانك قويا لما شغلك الموت هكذا..!!

يسود الصمت بيننا .. ظننتك أوغلت فى النوم مرة أخرى..لكنك عدت لتقولى:

- ها أنا المريضة بداء يبدو أنه لا فكاك منه... لا يزعجنى الموت... وها أنت تصاحبه فى نومك وصحوك... الحل عندى أن تكتب عنه بشكل هزلى.. استخف به... اكتب قصة بهذا المعنى.

أعجبتنى الفكرة .. هرعت إلى أوراقى وأقلامى وبدأت أكتب.

قبيل الجنون

مازالت فى رأسى بقية عقل... أدعو الله أن يطرح فيها البركة ليكفى مدادها حتى آخر كلمة فى قصتى...

إنى أخشى أن تكون قصتى هذه آخر فعل عاقل لى... لكننى فى الحقيقة أشعر بأننى أخدع نفسى... من مخاط أى طاووس أستمد غرورى هذا الذى يصور لى أنه بعد نصف ساعة من مثولى فى حضرة أوراقى سيكون لدى قصة ؟! لا شىء فى رأسى سوى تلك الفكرة المثيرة التى أوحت بها إلىّ زوجتى - فاستلهمت منها هذا العنوان الغامض «قبيل الجنون» - ولا أدرى أى خيط قصصى عاقل يقبل أن يؤمه مثل هذا العنوان... والحق أقول إنى لم آنس إليه لرنينه المثير... فمنذ سنوات بعيدة... وشعور يلازمنى بأننى فى ربع الساعة الأخير...لكن ذهنى يكاد يكون فارغا من خيوط أية قصة... لا أحداث ولا أبطال... العالم حولى... فى رأسى.. كوكب ضال فى فضاء هلامى.. لا أحد يقطنه على الإطلاق... حتى أنا... لا شىء... جائع... منذ ثلاثة أيام لم أتناول شيئا من الطعام... بالأمس كدست حقيبة سيارتى بأنواع شتى من الفواكه والخضراوت والأسماك واللحوم.. استعدادا لرمضان.. فلمَ لا آكل؟ وربما كان ذلك الشعور القديم

بالتحدى ،برفض الحياة... زوجتى كانت تقول إننى أنتحر!! الانتحار جبن أم شجاعة..؟ زوجتى تقول إنه جبن.. هروب من مواجهة الحياة.. أصدقائى يرون ما تراه زوجتى لكننى أعتقد أنه شجاعة... الموت ذلك المجهول المخيف الذى ارتضته البشرية العقاب الأقسى ضد عتاة المجرمين... جبن يختاره المرء بديلا عن الحياة..؟! لابد أن فى ذلك شجاعة..!! فهل أنا حقا.. أرفض الحياة.. .أنتحر بطيئا!! ربما ... فالحياة فى كثير من الأحيان تبدو أمامى عبثا... جديرة بالاستخفاف.. رغم كل محاولات جدى واعظ المسجد العجوز لإثبات غير ذلك.

أصل الحكاية قديم جدا.. يرجع إلى سنوات طفولتى... حين كنت أتوجه إلى دورة المياه فى الصباح الباكر لأغتسل استعدادا للذهاب إلى المدرسة... وغالبا ما أجد صرصورا فى قاع الحوض الأملس يجاهد كى يصعد ليلحق بأفراد عشيرته التى ربما أمضت الليل بطوله تبحث فى أسى عن رفيقها الغائب... محاولاته تبوء بالفشل...

وحتى فى المرات التى يكاد ينجح فيها أسرع بفتح صنبور المياه لتجرفه إلى قاع الحوض مرة أخرى.. فيعاود الكرة.. وأعاود أنا أيضا إسقاطه إن نجح... وحين تنهرنى أمى كى أكف عن هذا اللهو... وأسرع إلى ارتداء ملابسى حتى ألحق بطابور الصباح الذى كثيرا ما كنت أفشل فى اللحاق به بسبب الصرصور... أخلع خُفى الخشن... وأضعه فى مواجهة الصرصور فيصعد إليه.. فأحمله إلى الخارج... وأقذف به تحت الحوض... ليهرول مختفيا عن الأنظار ... أظن أن سيزيف لم يكن إلا صرصورا .... وأنا أيضا..!!

أعانى دوما من الإمساك..أمضى كل يوم حوالى ثلاث ساعات متقطعة بالطبع خلف باب الحمام... كنت أبكى من الألم والقرف والصداع... لكننى الآن لم أعد أبكى... بل أمضى أوقاتى خلف باب الحمام متأملا... ربما تسمعنى زوجتى أضحك.. ما هذا الذى أفعله؟! أما هناك وسيلة أخرى... ؟! وفى لحظات تأملى تلك ربما أصاب بحالة من الانبهار... وداخل الحمام لايبدو أن هناك

جديدا يبهر... الحقيقة أننى مبهور بأشياء قديمة قدم الإنسان.. هى الأكثر شيوعا فى حياة البشر.. وهى أيضا - فى لحظات تأملى خلف باب المرحـــاض - الأعظم إبهارا..وربما مثارا للضحك.. الميلاد ، الجنس ، ومرة أخرى الموت، ما الذى يعنيه الموت..؟ أين الآن الذين ماتوا من آلاف السنين؟ طبقا لهذا الشيء الذى قرأته يوما عن عدم فناء العناصر... هم لم يفنوا .. لكنهم تحولوا إلى عناصر أخرى... لذلك نحن نراهم حولنا.. فوقنا... تحتنا .. فى الأشجار والرمال... الحديد وربما الذهب... البترول والملابس... أنا سيكون بعضى بعضا من برميل بترول بعد آلاف السنين أباع بآلاف الدولارات «طبقا للأسعار فى ذلك الوقت»... ربما الحذاء الذى أرتديه الآن تدخل فى تركيبه عناصر من امرأة حسناء أو فرعون عظيم.. لا أظن أن شيئا حولنا تتدخل فيه عناصر من الفراعين العظماء .. لقد كانوا ذوى فطنة وبعد نظر - خافوا أن يتحولوا يوما إلى أحذية وسراويل نساء؛ فابتكروا التحنيط.. إذن فالأقرب إلى الصواب..

والاحتمال الذى يريحنى أن حذائى يتكون من عناصر حسناء..!! أشعر بملمسه الناعم والدافئ .. وأيضا بالرغبة فى تغييره...!!

وربما تلك الحسناء التى استقرت مؤقتا فى قدمى أهدرت بدلالها ودهائها كرامة العديد من الرجال العظماء ..ومن يدرى... ربما كانت جدتى..!! لكن ذلك لن يدفعنى إلى أن أختصر طقوس تبجيلى واحترامى لجدتى الحسناء.. فربما ترى أنامل الزمن العابثة أنه لا خير من وراء تحويل عناصرى إلى نفط.. ومن الأنفع أن أدخل فى صناعة سروال نسائى..!!

الجنس ..رجل ..امرأة... يتصارعان.. ينتصران معا حين يلحق بها ما يبدو أنه هزيمة فتشهر كل خلية من خلاياها راية بيضاء.. وتستلقى مستسلمة .. فتنفرج مسام جسدها... ليضخ فيها جوعه الوحشى... فتستقبله بصرخات اللذة!!.

«عزيزى..حين تلتقى بامرأة وقور... تنام عيونها فى بحيرة من البراءة أو القوة... أو اللاشىء... أستاذة

جامعية أو عالمة... أو رئيسة جمهورية.. أو ملكة.. هل يمكن أن تتخيلها هكذا أسفل رجل تعلو وتهبط عجيزته في رتابه.. وملل إن كانا زوجين منذ عدة سنوات..!! وماذا إن وقفت بين يدى رجل عظيم.. مرهوب تتوسل فى خشوع أن يحقق لك رغبة ما... بالتأكيد وأنت فى حالة التوسل تلك إن تذكرت عجيزته العارية وهى تعلو وتهبط ليلاً فسوف تنفجر ضاحكا!!

يوم السبت الماضى قضينا أمسية مبهجة.. زوجتى وأنا..احتفالا بمناسبة عزيزة - فبعد ثلاثة أشهر من التفكير والتدبير والتحقيق والبحث عن مستندات والرحلات المكوكية بين نصف المصالح الحكومية استطعت أن أثبت أن خط الهاتف الذى فى منزل جارى العزيز هو خطى أنا... استعاره الجار العزيز منذ عام خلال سفرى الطويل .. مكافأة لى على هذا الجهد المضنى قررت الهيئة العامة للمواصلات السلكية واللاسلكية إعادة الخط إلى منزلى فى الأسبوع قبل الماضى - أتذكر أننا قضينا أيضا أمسية أخرى مبهجة.. فرحين بموافقة المدرسة على قبول

طفلنا تلميذا لديها... شريطة أن يتبرع بألفى جنيه..!!
وهكذا.. فأسباب السعادة فى حياتى كثيرة.. بعدد المشاكل التى نجحت فى حلها.. مع الجيران والحكومة... وبائع اللبن والطماطم وصاحب العمارة.. وشرطى المرور.. ورئيسى فى العمل... يضاف إلى كل ذلك المرات التى أمضيت فيها وقتا مريحا فى دورة المياه دون أن أعانى من قسوة الإمساك.. والمرات التى مارست فيها الحب... إن هذا الأخير يسحرنى بنشوته الفائقة.. وهذا إقرار منى بذلك يجُب أى كلام قلته قبلا حول هذا الشأن... وإنى أبتهل إلى الله أن يديم علىّ تلك النعمة التى منحنى إياها... وسأغمض ذهنى عن أية وساوس فلسفية عقيمة ستدور داخلى خلال نوبات الإمساك على شاكلة ولماذا الجنس؟ أما كانت ثمة وسيلة أفضل للتناسل بدونه... وأما كان يمكن أن يشعر الإنسان بلذته - شعورا روحيا داخليا... دون أن يضطر إلى الزواج.. أو يلهث مسعورا خلف امرأة..!!

فى الصفحة السابقة أو قبل السابقة أشرت إلى أننى

سأكتب قصة.. وها أنا بدلا من كتابة قصة أسرد أفكارا حول عبثية الحياة.. لكن أية قصة سأكتب ؟ قصة حياتى!! هاها.. لا شيء فيها يختلف عن قصص حياة كل سكان الأرض.. ولاأزعم أننى كنت يوما بطلا.. والحقيقة أن كوكبنا لا يوجد عليه أبطال رغم اختراع النياشين والأوسمة... وتغذية القواميس بكلمات مثل الفداء والتضحية والإيثار والانتقام والوطنية والقومية.. ومع احترامى العظيم لحملة النياشين والأوسمة.. فهم أنا وأنتم.. جميعنا «تشارلز كارتون» يدفعه الإخوة المواطنون حراس الثورة مقيدا بالأغلال إلى عربة قذرة تشق طريقها وسط الأمواج البشرية التى تصب عليه لعناتها ... إلى المقصلة ..!! قد تكون شوارعنا أفضل حالا من شارع تشارلز كارتون... نظيفة.. على جانبيها مكبرات صوت تبث فى آذاننا أغانى البوب وكلاسيكيات بيتهوفن.. والروائع الحلوة لكوكب الشرق والعندليب الأسمر .. وربما ثمة فترينات جذابة تعرض بداخلها أحدث الموديلات من الملابس ومستحضرات التجميل... والأدوات

الكهربائية وأفلام الجنس.. لكن كل الشوارع مثل شارع تشارلز كارتون.. تنتظر فى نهايتها العروس.. «أظن أن الأخوة المواطنين حراس الثورة هم الذين أسموا المقصلة بالعروس»..!!.

***

أتوقف عند هذا الحد.. فلم يعد لدى المزيد.. ولأن هذا الذى كتبته لا أظنه يختلف كثيرا عن لعاب مريض بالصرع! دفعت إليك بأوراقى قرأتها بعناية.. عيناى مثبتتان على مشاعر وجهك.. لم تبتسمى قط.. بل امتقع وجهك فى بعض الأحيان.. وأحيانا أخرى علته مسحه.. اشمئزاز.. وعند بعض الفقرات ضغطت على شفتيك استنكارا.. وبعد كل هذا ما كنت فى حاجة إلى أن أسألك : ما رأيك. فأنا على يقين أنك حين بحت لى بفكرتك بأن أكتب قصة أتناول فيها الموت بروح مرحة... ما قصدت أبدا هذا الذى بين يديك؛ قلت لك فى شبه اعتذار:

- أفهم الآن ما كنت تقصدينه.. وسأحاول أن أحقق

ذلك فى أقرب وقت بإذن الله.

وأبدا لم أنفـذ وعـدى.. كـانت أناملى أوهى من أن تستطيع أن تمسك بقلم وأنا قابع بجوار سريرك أتأمل وجهك فى ذهول وفزع جاهدت ألا ترينهما أبدا.. وحين أغادرك فإلى الأطباء.. والمكتبات.. والعارفين ..أسألهم الأمل لأنقله إليك مضروبا فى مئات المرات. - واكتظت غرفتك فى المستشفى بالعديد من الكتب والمجلات الطبية التى تتحدث عن تليف الكبد.. بشىء من التفاؤل.. أما تلك المكتوبة بلغة الصراحة القاتمة فكنت أحول دون أن تصل إليك.. ورغم أننى عـرفت من خـلال هذا النوع الأخـيـر من الكتب أن داءك لا برء منه.. لكننى طردت دوما هذا الخاطر المرعب... إن الكلاب .. كلاب الشتاء البعيد ستصم آذانى ذات ليلة بنباحها المخنوق.

***

- أود أن أتناول فنجان قهوة.

- وحم ؟!

- ليس هذا وقت مزاح.

- ربما كانت القهوة لا تناسبك فى مثل هذه الظروف..

- وليكن .. سأتناول الآن فنجان قهوة.

- لنسأل الطبيب أولا.

- لا داعى لذلك.. فى كل الأحوال سأشرب قهوة.

- لماذا هذا الإصرار... لم أرك قط تتناولين قهوة من قبل..!!

- باختصار .. لكى ترى لى الفنجان.

بهرتنى الفكرة... وكنت قبلا أتهرب من فناجينك... وكنت تتأملينني وأنا أشخص بعيوني فى فناجين غيرك.. أصدقائنا وزوجات أصدقائنا .. وحين تصيب بعض تخميناتي يلاحقنى الجميع بعيونهم المذهولة.. فيزداد إلحاحك بأن أقرأ أيضا فنجانك.. وأكرر للمرة الألف.. إننى ياحبيبتى لا أعرف كيف يقرأ الفنجان... مارست اللعبة على سبيل المزاح... كنت أغزل وقائع وأحداثا أستنتجتها من خلال معرفتى بأحوال الأصدقاء.. لكنهم صدقوا وصدقت أنت أيضا.. فيزداد إلحاحك.. فتذرعت بحجة غريبة: أننى لا أستطيع أن أقرأ فنجان هؤلاء

المنصـهرين معى فى كيـان عـاطفى واحـد.. وفى المرة الأخيـرة.. وداخل حقل ألغـام المرض... حين طلبت منى استجبت .. لأنها فرصة رائعة لأزرع تحت جلدك «إبرة» آمال أخرى قوية المفعول...

- مـاذا بالفنجـان..؟ أراك تحـملق فيـه أكـثر من كل مرة..؟ صارحنى.. ماذا به؟

لم أكن مشغولا أبدا بتلك الأودية البيضاء المحاصرة بهضاب قـاتمة وسط الفنجـان.. كنت أفكر فى جرعـة الآمال القوية التى سأضخها فى روحك.. وحين انتهيت من تحضيرها؛ تطلعت إليك وقلت فى تأثر بذلت جهدى كى يمس أوتارك:

- ستـفـقـدين إنسـانا عـزيزا.. أظن أنه أنا.. بعض المصاعب ستواجهك بعد رحيلى.. ربما تتعلق بالأولاد.. لكنك ستتغلبين عليها بعد فترة.. وستنعمين بصحبة أحفاد لك... كلهم ذكور...

وغصت بعيونى فى داخلك ربما لأقرأ تأثير ما قلت.. كان وجهك أيضا صامتا من كل تعبير - فقلت على سبيل

المزاح:

- أخاف أن تتزوجى.. ربما المصاعب التى سيواجهها أطفالنا ستنشأ عن ذلك..

انحدرت دمعة ساخنة من عينيك.. وقلت فى تهدج:

- ربنا قادر على أن يجعل يومى قبل يومك.. وإذا حدث أن رحلت أنت قبلى... فإنى أعاهدك على ألا أفعل ذلك أبدا .

وأمضى الأطفال الأربعة ليلة حب ناعمة... الصغيران وأنت وأنا!!

***

كان الموت لعبتك الغريبة خلال سنوات المرض... تتوارين خلف الستائر أو الأبواب.. وأبحث عنك مفزوعا.. هل حان رحيلها فجأة إلى السماء فرحلت..؟! وآخر المرات مارست اللعبة فى صورة أرهبتنى... كنت عائدا ليلتها من عمل.. أدرت المفتاح فى ثقب الباب.. . وكالعادة ملأت الشقة بضجيجى ونداءاتى... دائما كنت أود أن أطمئن بأن عشنا مازال معبقا بحضورك... لكن لا شىء

يتـردد بين أرجـاء الشـقـة سـوى صـوتى... هرعت إلى الحـجـرات.. دولاب الملابس.. خلف الأبواب ... تحت الأسرة ... صعدت الدرج قفزا إلى السطح.. ربما كنت هناك تحتوين المدينة الكبيرة بنظرة وداع... أعود سريعا إلى الشـقـة.. يتكرر النداء والجـولات فى نفس الأمـاكن السابقة.. أدلف إلى الحمام للمرة الرابعة... صرخت فى فزع وأنا أرى جسمك ممددا فى «البانيو» ورأسك تطل بلا حراك ... ارتميت فوقك مفجوعا... هل حانت لحظة يتـمى..؟! كانت عـيناك مـغـمضـتين... أسـحب يدك بلا حـراك.. أهز رأسك.. أصـرخ باسـمك، وخـلال سنوات مـرضك كان صـراخى دائمـا باسـمك... وفـجـأة انطلقت تزلزلين كيانى المتعب بضحكاتك.. نهرتك .. وحين أوينا إلى الفراش امتدت يداك الحانيتان تحتضنان يدىّ.. وأنت تهمسين فيما يشبه الاعتذار:

- كنت أمزح.

قلتُ .. وقد هدأت ثورتى:

- أم أنك تجرين «بروفة»..؟!

قلتِ ضاحكة:

- كنت أود أن أعرف هل ستحزن من أجلي؟!

وضممتك فى حنو هامسًا:

- اختبار موجع للحب..!!

***

يمطروننى بنظرات الاستنكار .. حين أبحث جهرا فى قواميس الآمال الضائعة.. كى أواصل انزلاقى فى بئر الندم السحيق.. وأعترف أن الندم على فرص إنقاذك الضائعة.. شعور يريحنى .. كفارة أؤديها فى اطمئنان مفرط.. وأتذكر الآن أن الطبيب الإنجليزى بعد أن أجرى فحوصاته الشاملة سألنى:

- هل لديكم أطفال..؟

- نعم.. طفل فى السادسة.

ولم أسأل ما صلة ذلك بمرضك.. لكنه وبعد الولادة الثانية قال لى فى هدوء:

- لو كان لديكم أطفال أكثر... لأجرينا لها عملية إجهاض .. فالحمل والولادة يجهدان الكبد كثيرا، أمل

ضائع يبعثرني أشلاء في متاهة الندم.. لو أخبرني أن هذا ما كان يرمي إليه حين سألني كم عدد أطفالنا.. لقلت له أننا لا تريد المزيد من الأطفال... المهم شفاؤها .. أما كان ذلك باب أمل لم ندلفه!! وأتذكر أيضا الآن تلك الأمسية التي انزرعنا فيها أمام التلفزيون نقهقه بصوت عال تنتفض له قلوبنا بهجة.. ونحن نتابع أحداث هذا الفيلم الأمريكي الكوميدي.. كان بطل الفيلم يترقب بقلق انفراج باب غرفة العمليات لتطل منه الممرضة الحسناء فتنبئه بأنه أصبح أبا.. لكن فوجئ بطبيب أصلع يندفع فجأة من خلف الباب بوجه متجهم...

ـ ماذا هناك يادكتور؟

ـ الولادة متعسرة.. علينا أن نضحي بالوليد أو بأمه..

وبتلقائية كوميدية قال الزوج:

ـ ضح بالأم!! أريد الطفل!!

وضحكتُ .. لكن وجهك تلون بحزن مفاجئ.. وأنت تتحسسين بطنك بآلية.. كان ذلك في شهور حملك الأولى وحين انتبهت سألتك:

- ماذا بك..؟

ونظرت إلىّ فى صمت لعدة لحظات.. قبل أن تقولى فى أسى:

- هل يمكن أن يحدث هذا ..؟ هذا الجنين الذى يتكور الآن فى بطنى يتغذى من دمى ولحمى وحبى .. يمكن أن أوضع أنا وهو فى مواجهة هذا الاختبار البشع فى غرفة العمليات..؟ إما أنا أو هو..؟ ومن الذى يقرر طرف ثالث.. الزوج..؟ ولماذا لا يسألون الزوجة قبل أن تدخل غرفة العمليات؟!

قلت:

- ربما قالت : ضحوا بى.. واتركوا ابنى يعيش..

قلتِ... ومازلت أتذكر صوتك العميق الصادق:

- ليس ربما... بل يقينا.. هذا هو اختيار أى أم.

وبعد ذلك بأسابيع حين بدأ تظهر عليك أعراض المرض اللعين... ونقلت إلى المستشفى .. لو عرض على الطبيب الإنجليزى اختيار عملية الإجهاض إنقاذا لحياتك.. لوافقت بحماس... بل ألححت على ذلك.. حتى لو لم يكن

لدينا سوى طفل واحد... أو بدون أطفال.. لكنه أبدا لم يعرض هذا الاختيار.

***

وفى ليلة ... كنت وحيدا.. بعد أن غادرت أنت والصغيران إلى مصر.. أبحرت فزعا فى «جحيم» هنرى باربوس... أمضيت شهورا أبحث عنه بعد أن قرأت ما كتبه «كولن ويلسون عن بطل الجحيم».. وتصنيفه كأحد اللامنتمين.. . فى تلك الليلة عثرت عليه عند صديق.. هرعت به إلى المنزل... وأخذت أراقب مع هذا اللامنتمى.. نزيل الفندق.. ما يحدث فى الغرفة المجاورة لغرفته عبر ثقب صغير فى الحائط... وفى فصله الأخير... ربما قبل الأخير... لا أتذكر... كان جحيم هنرى باربوس... ولأول مرة ظننت أن لغة الأرقام المتسمة بالحياد الصارم يمكن أن تتخلى عنها حيدتها ... وباربوس ليس عالما ولا هو مكتشف تلك الإحصاءات الرهيبة... ولا أظنه قبع فى قبر ميت منذ لحظة ولوجه القبر، وأمسك ورقة وقلما وأخذ يسجل تواريخ ميلاد

الديدان، وأطوارها فى الجسد المتحلل... فهو لم يأت بجديد... لكن لغته المباشرة للغاية صدمت الخيلاء الإنسانى فى داخلى.. ارتددت إلى التاريخ... الخلفاء الراشدين وغير الراشدين.. الإسكندر المقدونى... نابليون... يوليوس قيصر... جميعهم مرت أجسادهم بأطوار العفن ملتزمة بدقة أرقام هنرى باربوس... الرحمة يا إلهى... أى رواية تلك؛ كل سطر فيها قوة جذب هائلة لكل ما بداخلى من قرف إنسانى.. ما إن أتقيأه حتى أفاجأ بموجة تالية يلح علىّ عفنها لتخرج... فتشت فى جدران ليلتى الغريبة عن ثقب شبيه بثقب غرفة «هنرى باربوس».. لا لأختلس النظرات إلى الغرفة المجاورة ولكن للعالم الفسيح... عالم الطواويس المزهوة بألوانها الزاهية المنمقة الذين فى الغالب يعرفون إحصاءات هنرى باربوس.. لكنهم يهربون منها بتحقيق خلود اللحظة فيغرقون فى المشاريع والترقيات والعطور الفواحة والثياب الزاهية والفوران الجنسى... لكن كل ذلك لن ينال أبدا من اليقين المطلق... أن فى نهاية الشارع تترقبنا العروس ... هل يكون

هذا أيضا مصيرك..!! فزعت إلى الهاتف.. أخشى أن تكونى قد انزلقت فى جحيم هنرى باربوس المخيف... أضغط الأرقام بعصبية.

ـ آلو.

ـ أيوه يا نهى. انت لسه عايشة..!! الحمد لله..!!

يتهدج صوتى ..أصادر الدموع حتى لا تسمعين هديرها فى قلبى .. تضحكين:

ـ مش هتبطل وساوسك دى..!! اطمئن .. لسه مامتش .. وقبل ما أموت هديك تليفون..

ـ بطلى هزار... صحتك عاملة إيه دلوقتى؟

ـ الحمد لله... رحت للدكتور ياسين عبد الغفار .. وطمنى .. وانت كمان لازم تطمن... أنا قلت لك قبل كده مش هاأموت قبل تسع سنين... أما يبقى عندى ٤٢ سنة!!

حاولتِ أن تكونى تلميذة مجيدة لى فى كيفية زرع الآمال الكاذبة تحت الجلد.. لكننى شعرت بهاتف آخر مقموع فى داخلك كان يود أن يخبرنى بما لم يخبرنى به لسانك.. وفى مكالمتى التالية.. حاولت أن يكون صوتك

قـويا... وحين تحـدثت مع شـقـيـقـتى التى كـانت تجلس بجوارك سألتنى:

– متى ستأتى؟

وقلت فى بلاهة: الشهر القادم.

وسـألتـهـا عن حـالتك.. فـصـمـتت قليـلا قـبل أن تقـول باقتضاب مقلق: بخير.

ولقـد أخـبـرتنى بعـد ذلك أنك حـذرت الجـمـيـع حـتى لا يخبرونى أن حالتك تزداد سوءا... كى لا أقلق...!!

لكن أخاك فعلها.. أخبرنى.. حين نقلت إلى المستشفى، كان صوته مجهدا... وعرفت الحقيقة..واتصلت بك فى المستشفى .. وحاولت أن تخفى الأمر.

وبعد ست سـاعات اتصلت مرة أخرى .. كنت أحـاول أن أتحدث مع طبـيبك الشـهـيـر... ومـا كـان لديه سـوى أكليـشـهـات الاطمـئنان المعـتـادة... وبعـد ثلاث سـاعـات اتصلت للمرة الثـالثـة... أخـبـرنى أنك نائمـة.. وممنوع إزعاجك.. لم أنم؛ خرجت إلى المدينة... إلى الأصـدقـاء.. أهذى لهم بأوجاعى.. فتشت عن مقعد فى طائرة متجـهة

إلى القاهرة... كان موسم إجازات المدرسين .. ولا مكان... حملت حقيبتى إلى المطار... وهناك توسلت إليهم فعطفوا على بمقعد..

كانت لهفتى إلى الأطباء.. المرضين .. كل من يعمل فى المستشفى من ذات لهفتى إليك.. أسألهم عن حالتك.. أبحث فى عيونهم عن أمل حقيقى.. فإن عثرت على هذا الأمل مع أحدهم.. يسلبه منى زميل له... جلست بجوار فراشك كالعادة أبثك الأمل الكبير... بأنك ستعيشين.. كما رأيت فى فنجانك من قبل... حياة هنيئة بصحبة أحفادك.. لكن لغة الحوار خارج الغرفة كانت تجرى بأبجدية مختلفة... قال بعضهم:

ـ لا فائدة .. من الأفضل أن نعيدها إلى المنزل... وجودها فى المستشفى لا طائل من ورائه.

فزعت ... وأخوك.. كان إيماننا هائلا بالمستشفى الفخم،، والطبيب العظيم الذى لا أكف عن ترديد معجزاته... وأسماء المشاهير الذين عالجهم قبلا.. كنت أغمض عينى وقلبى عن كل الحقائق إدمانا لأمل فرت كل

الشواهد من مساندته..!!

واقترح بعضهم ثانية:

- لنأت بصغارها .. لتراهم.. للمرة الأخيرة!!

بكيت .. توسلت أليهم ألا يفعلوا.. لا أريدك أن تشعرى بأن تلك هى النهاية.. وخلال سنوات المعاناة الثلاث حتى ونحن على مشارف المحطة الأخيرة.. كنت أحدثك عن الأحلام التى تحققت.. وتلك التى لم تتحقق: ديكور حجرة الصالون، أى الألوان نختار لأثاث غرفة الصغيرين.. الشرفات..أى النباتات نضعها بها.. كنت سعيدا..وأنت تتحاورين.. وتجيبين ... وفى نهاية سمرنا الأخير.. قلت عن قصد:

- لنترك هذا الأمر إلى أن تخرجى من المستشفى لتبتى فيه بنفسك!!

وابتهج وجهك بآمالى التى أزرعها تحت جلدك.. فما كنت مستعدا أن تنهار كل محاولاتى بالموافقة على أن نأتيك بالصغيرين.. لتريهما .. للمرة الأخيرة.. والآن أشعر بفداحة إثمى.. فهل تغفرين..!!

وفى نهاية جلسة سمرنا الأخيرة أيضا حين انتابتنى لحظات من الشرود الصامت.. سألتِ:

- ماذا بك..؟

قلتُ:

- أشعر بالوحدة.

فى دهشة:

- معى..؟!

قلت:

- لم تعودى معى..!!

- كيف..؟

- فى الماضى.. حين تزوجنا .. كنت لا أشعر بالوحدة وكنت معى.. كان حضورك يملؤنى صخبا وحيوية وشعورا بالأمان..

- والآن...!!

- الآن.. توحدنا.. أصبحنا كيانا واحدا.. لذلك أشعر بالملل..!!

والآن ..أقولها أنا.. أشعر كأننى قد شطرت

نصفين... نصف رحل.. ونصف آخر مازال ينزف!!

***

- البقية فى حياتك.

أتطلع إليـهـا فى بلاهة.. تفلت الحـروف بمشـقـة من مسام نحيبها.

- من بضع دقائق فقط... بين يدى... وأنا أساعدها فى تغيير ثيابها..

ها هو الذى كنت أتخشب منه رعبا وأنا فى أحضـان جدتى منذ ثلاثين عاما.. وأضحك منه استخفافا عقب كل زيارة له لقـــريتنا حين كـــبــــرت... يداهمنى الآن فى الســويداء.. لكن كـيف يحـدث هذا... لم أسـمع الكلاب تنبح..!! ولم تعجلت الرحيل..!! أتذكر أنك أخبـرتنى من قبل أنك سترحلين فى عيد ميلادك الثانى والأربعين..

فلم اختصرت من عمرى الحقيقى تسع سنوات وستة أشــهــر..؟! ياإلهى: امنحنى القـدرة على أن أضــحك.. أقـهقـه.. فـذلك خيـر نهـاية لقصـة عن الموت وعدتك بأن أكـتـبـهـا.. ولم أكـتـبـهـا قط..!! أندفع كـالمجنون نحـو

الفـراش.. أزيح الغطاء عن وجـهك... رغـبـات مـحـمـومـة تدفـعنى لأن أحـتـضنك... أعـتـصـرك... أنصـهـر فـيك.. تراجـعت... أسـافر عـبـر صـفـحـة وجـهك.. لم أرها طيلة سنواتنا الثمانى نبعًا لكل هذا الصفاء والاطمئنان .. خيل إلى أنك تبتسمين.. كأنك تؤكدين لى ما قلته لى من قبل:

– كما ترى... ها أنا لا أخاف الموت..!!

ورسالة أخرى قرأتها فى شفتيك الصامتين:

ـ دائما كنت تقول ساخرا إن كل هواجسنا حول الموت ستتبدد حين يذهب أحدهم ويعود .. ليخبرنا ماذا هناك .. وها أنا أقول لك.. الأمر كله رائع.. أكثر مما يصوره لك خيالك.

انحنيت على وجـهك.. لثـمتـه بشـفـتى للمرة الأخـيـرة.. وصوت خالتك يلهث خلفى:

ـ لا تقبلها ـ تقبيل الموتى حرام.

الموتى!!أصـبـحت تصـنفين منهم..!! لم يكن ذلك فى تخطيطنا قط!!

وأخوك أيضا لم يخطط لذلك.. قال بحثا عن أمل فى

أرضى اليائسة:

- لعلها فى غيبوبة .. لم تمت!!

وانفجرت فى الممرضة:

- أين الدكتور ياسين ..ابحثوا عنه... ليحاكم الآن... خدعنا جميعا... قال لها بالأمس... كلى أى شىء.. وهى المحرومة منذ عامين... من كل شىء..!!

كانت الغرفة محشودة بالآمال والأحلام تطرب لكلماته القليلة.. أغمضنا عيوننا عن الموت الذى يتسلل إلى خلاياك.. يسحب منها ماء الحياة... وأناملك الرعشى فى كفه.. وسافرنا على بساط كلماته إلى عالم من الآمال المستحيلة... والآن... وأنا أستعيد نظرته الأخيرة إليك وهو يغادر الغرفة.. أدركت الحقيقة..كانت نظرة وداع... كان يعرف أنها الساعات الأخيرة... لا فائدة من سياسة الحرمان الصارمة التى تنفذينها كتلميذ مجد منذ عامين:

- كلى أى شىء.

- أى شىء يادكتور؟!

- أى شىء..!!

وتوارى سريعا... تاركا خلفه .. فى ذاكرتى.. نظرته الغامضة.. وحين أستعيدها الآن.. أقرأ فيها كل .. بيانات شهادة وفاتك.

ـ هل نطقت الشهادتين..؟

تجيب الخالة من بين غلالة دموعها الصامتة:

ـ لم أسمعها..

لكننى موقن من أنك كنت تنطقينها دوما... قبل النوم.. وخلال صحوك ..كنت تشعرين بأنها النهاية... بأنك ستلبين قريبا جدا نداء أختك التى تلح عليك فى نومك .. أتذكر هذا الحلم حين كنت فى المستشفى السلطانى فى مسقط ..جاءتك أختك التى رحلت منذ سنوات ... أخبرتك أنها تريدك أن تذهبى معها ... رفضت ..جذبتك.. صرخت .. قاومت... صرخاتك أفزعت الطبيبة... هرعت إلى سريرك... أيقظتك... احتوتك فى صدرها... حاولت أن أشرح لك.. أن أحلامنا مرآة قلقنا... ولا تعنى شيئا آخر.. لكن الشقيقة التى رحلت منذ سنوات لم تيأس.. واصلت معركتها الكبرى.. حتى

انتصرت!!

وقد سألت أمك.. أورسولا القوية:

- أكانت متعلقة بأختها..!

أجابت في نظرة حزن عميق... حين نكأت جرحا قديما.. يضاف إلى الجرح الجديد:

- كانتا متحابتين.

***

يجذبني أحدهما بلطف من ذراعي:

- تماسك .. يجب أن تتقبل العزاء.

أنا... أتقبل العزاء..؟ وحين كنت أسير في الجنازات دائما لمن أعرفهم ومن لا أعرفهم... كنت أحشر نفسي في أحد الطابورين البشريين اللذين يخترقان ممرات المقابر في انتظار مرور أهل الميت وأقربائه لتلقي الشكر على المشاركة في الجنازة... وعندما كنت في طوابير المشاركين في الجنازات لم أكن أعرف بماذا أرد حين يمد لي قريب الميت يده وهو يقول: شكر الله سعيكم..!! وكنت أكتفي بتمتمة مبهمة.. وأظن أن كثيرين غيري يفعلون

مــثلمــا أفــعل ..والآن يذكــرنى أحــدهم بالواجب الاجتماعى..أن أسير وسط الطابورين .. وأردد عددا من المرات يتساوى مع عدد المشيعين : شكر الله سعيكم!!

هل حـانت اللحظة الأسطورية لأن أتخلى عن مكانى فى مقاعد المتفرجين وأصعد إلى خشبة المسرح..؟!

جذبت ذراعى بعنف من بين يديه.. صرخت : لن أفعل شــيـئــا.. تلك الخطوات الألف أو الألفين بين طوابيــر المشيعين.. تتجاوز قدرتى على التحمل..!!

***

«أورسولا» القوية الصامدة دوما... تنهار ... رأيتها وأنا عائد من الجنازة مسنودا من الرفاق.. تهوى فى الترعة القريبة من المنزل... تتمرغ فى الوحل... نحيبها خافت.. غريب... كأنه يصدر عن تفاعلات أحزان كل الثكالى فى هذا العالم.

«أورسولا» هل تتذكرينها..؟! هل تتذكرين تلك الأمسية التى تصفحنا فيها معًا فصلا من رواية «مائة عام من العزلة» .. قلت لك ليلتها: كأن جارسيا ماركيز التقى

بأمك.. وطبع صورتها الفوتوغرافية فى رائعته تحت اسم «أورسولا»

حتى «أورسولا» تنهار أمام الموت..

وكان الصغير بعد مرور أسبوع لم يعرف بعد.. وحين تلقت القرية الخبر.. أبُعد عن المنزل... سحبوه إلى منزل خالته فى ضواحى القرية.. لكنه سمع الناعى ينعى أمه!!

قال ببراءة:

ـ لماذا يردد هذا الرجل اسم أمى؟!

أشاحوا بوجوههم عنه.. حتى لا يرى عيونهم تتفجر دما ولحما.

***

ـ من يخبر الصغير..؟

قلت:

ـ أنا.

ـ كيف؟

ـ حسام لم يعد صغيرا...!!

فى الرابعة كان يسألنى عن معنى الموت وأشرح له

ذلك فى صورة يتقبلها ذهنه الصغير.. انتقال إلى حياة أخرى... هى أحسن من حياتنا تلك.. كنت أهتم بأن أقدم إليه صورة محببة للموت... لأجنبه متاعب الكوابيس ليلا.. إنْ تغلغل هاجس الموت إلى وجدانه رفيقا ثقيلا مفزعا طوال رحلة العمر ـ كنت أسعى لتحصينه ضد نباح الكلاب ليلا..!! ولم أهتز قط حين سألنى ثانية:

ـ وكيف عرفت أننا حين نموت ننتقل إلى عالم آخر أحسن..؟ هل عاد رجل ميت.. وأخبرك؟

وبثبات قلت له:

ـ لم يعد أحد من الموت.. لكن الله أخبرنا بذلك.. قال الإنسان الخيّر بعد الموت يذهب إلى الجنة!!

ذهبت إلى الصغير حيث يقيم عند خالته .. لهوت معه بعض الوقت.. قرأت له قصة.. حكيت له حكاية عن رجل تعذب كثيرا مع المرض... ثم أنقذه الله من آلامه بأن نقله إليه... سألته:

ـ حسام.. ألا تتمنى أن ينقذ الله أمك من مرضها..

ـ نعم ياأبى .. إننى أحبها.. كما أحبك..؟!

- والله أيضا يحبها.. فأنقذها.

- وهى الآن لا تتألم؟

- نعم.. هى الآن عند الله... حين يرى الله إنسانا يتألم من المرض... يأخذه عنده فى دنيا كلها حب وخير وسعادة.

واستسلم الصغير للفكرة.. والغريب أنه لم يعد يتحدث عنك أبدا.. وتنوعت التفسيرات حول ذلك..!!

***

- راح..خد أملى وراح... خد نور أيامى.. خد كل أحلامى.. وراح..!!

هل تتذكرين تلك الأغنية...؟! حين باغتنى يوما... وأنا أسمعها... ألحت بعيونك: لماذا؟! وكنت محقة فى دهشتك واستنكارك.. فقد كنا فى زهوة أيام عرسنا الأولى.. وقلت بصدق:

- لا أدرى.. حين كنت فى مكتبة الأشرطة صباح اليوم سألت البائع عن هذه الأغنية.. لم؟ لا إجابة واضحة لدى..!! بحث عنها... لم يجدها.. أخبرنى أن أمرّ عليه

بعد ساعتين... غادرت المحل.. وما كان فى نيتى أن أعاود زيارته.. لكنى بعد ساعتين عرجت عليه مرة ثانية.. ثم ضاع الشريط.. وكنت أهم أن أسألك عنه أكثر من مرة... لم أفعل.. وها أنا أعثر عليه الآن.. فى خزانة ملابسك... فلم اختفى منذ ثمانى سنوات ولم عاود الظهور الآن..؟!

***

تنهشنى الوحدة فى شقتنا التى كنا نشكو دوما أنها أضيق من أن تتسع لصخبنا وأحلامنا ... وكنا دائما نخطط لتغييرها... ومازلت أذكر تلك الليلة التى أرقنا فيها معا... ومضينا نقتل ساعات الليل سمرا... تطرقنا إلى المشاكل التى ستواجهنا إن انتقلنا إلى شقة أخرى، سأبتعد عن مقر عملى.. ربما لن تكون قريبة من مدارس الصغيرين.. متاعب نقل الأثاث .. التكاليف أيضا... لكننا انتهينا فى تلك الليلة المؤرقة إلى ضرورة البحث عن شقة جديدة... وصمتنا إغراء للنوم كى يتسلل إلى جفوننا... بعد لحظات فوجئنا بالحمام المجهول الهوية

الذى استوطن شرفة غرفة النوم وقلوبنا يعلو هديله فجأة.. وكنا نظنه قد نام كعادته مبكرا مع صغارنا ليستيقظ أيضا مبكرا معهم... ويبدو أنه كان أرقا يشغله سمرنا.. وحين صمتنا .. خرج هو عن صمته ليسأل: هل ستصحبوننى إلى شقتكم الجديدة؟! شاعت ضحكاتنا على أجنحة ضوء الغرفة الخافت وقلنا فى صوت واحد بعفوية كأننا اتفقنا فيما يعنيه بهديله:

ـ نعم... سنصحبك معنا..!!

وضحكنا ثانية فى دهشة لتوحد حتى رد فعلنا العفوى تجاه هديل الحمام!!

هل للحمام ذاكرة تتوهج فيها الذكريات بلهيب الأسى..؟ أظنه كذلك... ومنذ رحيلك هو مثلى لم ينم... تقتلنى الوحدة.. ويقتله الأسى... تستحيل علىّ الآن أبجديته... الرسائل التى يبثها منذ رحيلك لا أدرى ماذا تقول...!؟ لكننى أشعر فى هديله بحبل سرى من أنات الأسى يربطه بنحيب «أورسولا» حين انهارت فى الترعة المجاورة للمنزل يوم الرحيل..

جرس الهاتف يباغتنى دائما.. أشخص إليه بعيون فزعة.. السائق يدس برقية بين يدى.. أفضها بأنامل مرتعشة.. فى الشارع أشعر بهم يستحثون الخطا خلفى.. كأنهم يسعون لأن يودعوا فى أذنى أخبارا أخرى تهمنى... ألتفت إلى الخلف مذعورا.. لا أحد... جرس الهاتف... والباب... والسائق... والناس... جميعهم موظفون ليودعوا فى أرضى اليباب أخبارا أخرى سوداء.. هل جننت؟ حاولت أن أقتلعك من كيانى... فإذا بى بلا كيان.. حاولت أن أفرغ الذاكرة منك... أعيد ترتيبها بدون سنوات عمرنا معا .. فإذا لا سنوات فى الذاكرة سواها ..

وما عشناها سنواتنا الثمانى طبقا للعادى والموروث.. فما اقترنا طبقا للعادى والموروث.. وما كان حفل عرسنا طبقا للعادى والموروث... وما اهتممنا بالوقوف أمام المصور ليلتقط لنا صورا نزين بها عشنا، وليراها الأبناء والأحفاد بعد عشرات السنين بعيون مفعمة بدهشة الزمن... وما تعجلنا أن يكون لنا عش... فكيف نسعى

لتشييد عش.. والكون كله نشعر أنه يضيق بجنون فرحتنا..

وما كان - غفرانك ربى - فى خطط أحدنا أن الآخر سيرحل..؟!

فى لحظة ثورة على جحافل الحزن.. والطفل المقهور باليتم فى داخلى يئن.. حاولت أن أنفض عن الطفل يتمه.. ضعفه وأعيد صياغته.. قويا.. عملاقا .. كأرض مزلزلة سرعان ما تتماسك... وتنبت حياة... لكنه أوهى من أن يستجيب.. فما زال فى تيه اليتم يهيم..

وفى لحظات جنون الحنين الليلية.. تشكل رأسى فكرة مبهرة... أن جرس التليفون سيرن.. وأنك ستكونين على الطرف الآخر.. ألح عليه أن يستجيب لجنونى.. يرن.. أعتصر البوق بين يدى.. أعتصر أوهام جنونى!!

فاشلة محاولاتى تلك.. البحث عن أرقام نظيفة.. لم تشارك قط فى مؤامرة رحيلك «٩» رقم غرفتك فى المستشفى السلطانى «٢٠٤٣» رقم بطاقتك الصحية «٨» رقم غرفتك فى مستشفى الدقى «٣٤١٧٦٥» رقم الهاتف

فى المستـشـفى الذى كنت أتوسل إليـه أن ينقل لى عنك أخبـارا سـارة... لكنه لم يلب... !! يإلهى... أعنى على اكتشاف أرقام جديدة لم تشارك فى المؤامرة.

عيد مـيلادك يقـترب.. .عيـد زواجنا ـ أعيـاد مـيلاد الصغار.. من سيذكرنى فى تسامح وحب... بكل هذا؟

كذبة أبريل.. عـادتك السنوية فى زرع شـعور الفـزع فى داخلى عبر الهـاتف بخبر لا أتوقعه... ودائمـا كنت أتلقى الخبر مذعورا فتشفقين علىّ... وتجلجل ضـحكاتك الأكثر صفاء من قلب وليد... لتذكرنى بأن اليوم... الأول من أبريل... وها أنا يتشكل رأسى ثانية فكرة مجنونة: ألا أكون الآن أسير صباح أول من أبريل تجمدت عقاربه ؟! غفرانك... ربى!!!

***

يتصل بى صاحب مكتبة الأمل مهللا:

ـ جاءتنى الآن نسخ من الكتاب الذى سألتنى عنه.

ـ نعم.. نعم.. أضف ثمنها إلى حسابي طرفكم.!!

ـ والنسخة ذاتها..؟!

- احتفظ بها إلى أن أمر لآخذها..

- عفوا ..يبدو أنك نسيت عما أتحدث... إنه كتاب «أمل جديد لمرضى الكبد»

- لم أنس.

- إذن .. ماذا حدث؟!

مررت على المكتبة.. أخذت النسخة من الكتاب الذى كنا نلح فى طلبه.. لكننى لم أقل له قط ماذا حدث والذين لايعرفون حين يسألوننى عنك أقول لهم بخير.. وحين يلحون فى التفاصيل.. أفضى إليهم بالحقيقة... فينصبون المآتم على عجل فى العيون والقلوب... والصيدلية التى ما كففت عن الشجار مع بائعيها.. طبيبها يسألنى حين التقيت به مصادفة فى صلاة الجمعة:

- جاءتنا كمية قليلة من الكونيكيون.. كم علبة نحجزها لك..؟

- شكرا... لا شىء.

تمتم بكلمات مبهمة..وقد أدرك النهاية.. ثم انسحب سريعا..

ومـازلت قـابعـا فى مكـتـبى.. أتلقف نـشـرات وكـالات الأنبـاء... أستحثها أن تأتى بأخبار سارة...

اكتشافات طبية جديدة.. إحدى النشرات حملت الخبر البـشـرى.. علمـاء المركـز القـومى لبـحـوث وتكنولوجـيـا الإشـعـاع فـى مـصـر .. اكـتـشـفـوا أن مـادتى «اليـثـولا» و«٢٧٢١ آر دبليو» يمكن أن تستـخدما فى تجـديد خلايا الكبد... أتخيل وجهك يتوهج فرحا مثلما كان يحدث فى كل المرات التى حملت إليك فيها أخبارا سارة عن المراكز والمعامل الطبية فى زوايا الكون الأربع..!!

انتبهت .. بعد رحيلك بأيام.. أننى بعد ثمانى سنوات من زواجنا لا أملك بطاقـة عـائليـة!! وحـين كنت تلفـتـين نظرى إلى ذلك... وتسـتـحـثـيننى كى أهرع إلى السـجل المدنى... وأقذف أمامهم ببطاقتى الشخصية ليستبدلوا بها أخرى عائلية... كنت أقول ضاحكا:

- لدى عائلة.. أسعد عائلة.. رغم أنف السجل المدنى!!

وحـتى فى تلك الليلة التى دلفنا فـيـهـا إلى الفندق.. . وسـألنا مـوظف الاسـتـقـبـال أن يحـجـز لنا غرفـة - طلب

البطاقة ..قدمت له بطاقتي الشخصية.. قرأ بياناتها ... سأل:

– عفواً سيدى.. ألديك ما يثبت أنكما زوجان؟

ابتسمت ..وأنا ألمحك تتوارين تحت جلدك خجلا.. قلت له:

ـ نحن بالفعل زوجان ... من خمس سنوات .. بل لدينا طفل.

لكنه ظل ملازما خندق شكوكه:

ـ هل أحجز لكما غرفتين..؟!

وسحبت من أمامه بطاقتي وبمجرد أن تجاوزت خطواتنا مدخل الفندق.. قلت في محاولة لامتصاص بركان الخجل فيك:

ـ هذا الأسبوع لن ينقضي إلا ويكون لدى بطاقة عائلية..

قلتِ ساخرة:

ـ في بلدتنا الصغيرة. ـ بمجرد أن يبلغ الشاب السادسة عشرة يهرع إلى السجل المدنى ليستخرج بطاقة

شخصية.. وفى الثامنة عشرة يستخرج بطاقة إنتخابية.. وفى يوم «الصباحية» يتوجه إلى السجل المدنى لاستخراج بطاقة عائلية.

ـ فلاحو القرية لديهم وعى..!!

ـ بالمناسبة.. هل لديك بطاقة انتخابية..؟!

ـ لم أستخرجها بعد..

ـ ولا تكف عن التنظير..!!

ـ أعدك هذا الأسبوع.. سأكون مواطنا كاملا باستخراج كل ما ينقصنى من أوراق..!!

ونسيت وعدى.. إلى أن تذكرته بعد رحيلك. ـ وأنا أعيد قراءة كشف الوعود التى لم تتحقق.. لأسرع فى تحقيقها..

يسألنى موظف السجل المدنى:

ـ تاريخ زواجك؟

ـ ٢ أكتوبر ١٩٨٠

ـ هل لديكِ أطفال؟

ـ طفل ٨ سنوات، طفلة سنتان

ـ زوجتك تعمل؟

ولم أرد .. يعيد السؤال.. فقلت فى حزن:

ـ زوجتى لا تعمل .. زوجتى .. توفيت!!

رفع وجهه من فوق الأوراق..وتطلع إلىّ فى دهشة:

ـ آسف.. لكن .. بعد ثمانى سنوات ... وبعد وفاة زوجتك... رحمها الله... جئت تستخرج بطاقة عائلية..!!

ـ مشاغل!!

ونظر إلىّ للحظات فى صمت مشوب بالدهشة وربما بالاستنكار .. قبل أن يغرق مرة أخرى فى الإجراءات.

وبعد أسبوعين عدت ثانية إلى السجل المدنى لأنهى أوراقا خاصة بغرض لا أتذكره... وفاجأنى موظف آخر لم أكن قد رأيته فى المرة السابقة:

ـ الحالة الاجتماعية ...!!

انتابتنى رغبة فجائية فى البكاء..

تزداد لهجته حدة:

ـ لماذا تركت خانة الحالة الاجتماعية فارغة..!! اعزب... متزوج.. أرمل... كل الرجال يوزعون بين هذه الخانات..

فى أية خانة أنت..!!

تحسست خاتم الزواج فى أصبعى.. تبصرتك ألفا كاملا فى سويداء السويداء... كما كنت دائما.. فكرت فى أن أكذب وأقول له: أرمل.. لكنى تراجعت... وقلت متزوج!!

***

أبحث عن هذا الرجل العمانى الذى تناقلنا فى الغربة حكايته بتفكير عميق... عبارته القصيرة.. ربما .. بل يقينا تنبئ عن فلسفة حياة... رغم تعليقات الأصدقاء من أنها دليل كسل... أو لامبالاة.. وربما زهد..

كان لدى هذا الرجل شركة مقاولات صغيرة.. يديرها موظف مصرى دمه حار كما وصفه صاحب الشركة.. كان اليوم بساعاته الأربع والعشرين عاجزًا عن أن يحتوى نشاطه وحيويته وأفكاره ومشروعاته. ـ حققت الشركة نجاحا كبيرا.. لكن الموظف لم يكن راضيا عن صاحب الشركة... كان لا يروقه هدوء الرجل... فى مجالسه الخاصة وصفه بالبرود وفتور الهمة... وفى ساعة متأخرة من إحدى الليالى اتصل بالرجل فى منزله

لأمر يخص الشركة.. قال له الرجل:

- انتظرنى.. سآتى حالا..!!

فوجىء الموظف ..كان يتوقع أن يجيبه الرجل بهدوئه المعتاد:

- زين ياأخى ..باكر يصير خير..!!

جاء صاحب الشركة.. وبدلا من أن يجلس يستمع إلى ما يقوله له موظفه حول هذا الأمر الذى دفعه لأن يتصل به فى مثل هذا الوقت المتأخر من الليل.. طلب من الموظف أن يصحبه فى مهمة مستعجلة.. وبعد ذلك يتحدثان فى مشاكل العمل... قاد صاحب الشركة السيارة دون أن يعرف الموظف الذى كان يجلس بجانبه فى صمت مشوب بالدهشة وربما القلق إلى أين!! اتجهت السيارة إلى إحدى ضواحى المدينة.. وفى منطقة خالية من السكان والحياة توقف صاحب الشركة.. طلب من الموظف أن ينزل..سأله العمانى:

- هل تعرف أين نحن الآن..!!

أجاب الموظف فى توتر:

- إنها المقابر ..!!

وبهدوء سأل العماني مرة أخرى:

- هل تعرف كل هؤلاء الناس؟

- ماذا بهم..؟

- ماتوا دون أن ينهوا أعمالهم!!

استوعب الموظف الدرس الغريب .. وما عاد يقلق كفيله بمشاكل الشركة في منتصف الليل، أو أي وقت خارج مساحة الدوام الرسمي للشركة..

وحين أعدت على مسامعك تلك القصة.. وكنت تتابعينها باهتمام ..سألتك تعقيبا... فقلت:

هذا حكَيم بفطرته الموروثة أبا عن جد... وأظن أن لديه كثيراً عن الموت والحياة.. ما ليس موجودا عند سجناء المعامل العلمية.. وقاعات الجامعات.

وبعد رحيلك .. بحثت عن الحكيم العماني.. كنت بحاجة لأن أسمع منه عن الموت والحياة وما يهدئ سريرتي.. فلم أجده.. وعرفت أخيرا أنه .. مات..!!

***

ما عدت بقادر على الحزن.

هل كانت أحزانى فى الزمن البعيد نوعا من الرفاهية!!

منذ صباى وأنا أقتنى الأغنيات الحزينة والروايات الحزينة.. والقصائد المفرطة فى الحزن... وحين أتصفح الجرائد أتلهف على أخبار الحروب والكوارث فتسيل فى شراييني طوفانا من الأحزان..

وحين أكتب ..لا يفيض القلم بسلاسة وصدق إلا إذا غمس فى مداد الحزن .. وعرفت أن عالما بلا أحزان ليس عالمى..!!

أظنها رفاهية كنت أرفل فى مآسيها.. لكنى الآن .. وقد وشمت بالحزن الحقيقى.. تخليت عن تلك الرفاهية.. وأصبحت أتهرب من أخبار الحروب والسيول والموت جوعا.. أتهرب من مآسى الأصدقاء والأقارب.. ما عدت بقادر على مصمصة الشفاه كتعبير متوارث عن المشاركة العاطفية لأحزان الآخرين... فبعدك لا أحزان.. وحزنى برحيلك.. تنضب معه كل عيون الحزن..

وقريتنا الصغيرة التى ودعتها منذ أن ودعتك إلى

مثواك الأخير منذ أربعة شهور اقتحمتنى فى نومى أمس فجأة.. وجدتنى وصديقى حاتم رشوان الذى أمضى معه بعض ساعاتى فى الغربة نسير بجوار الطاحونة التى تقبع خلفها المقابر.. كان نهار القرية متشحا بألوان قاتمة صامتة غريبة... سألت صديقى أن ينتظرنى بضع دقائق:

- إننى الآن بجوارها .. سأزورها..!!

وهرعت إليك... لكن حين ولجت مدخل الممر الضيق المتجه إلى قبرك.. فقدت الرؤية ، ليس بسبب الألوان القاتمة التى غشت القرية إنما بسبب غبار عاصفة مصحوبة بأصوات غريبة تهب من خلف المقابر... من أطراف الترعة.. سحبت خطواتى القليلة من مدخل الممر.. وهرعت إلى صديقى.. لم أجده.. فجأة انسحب الوعى من الحلم... وأصبحت جزءا من رؤية أخرى فى منطقة أخرى داخل القرية. - كأنه فصل جديد من مسرحية أنا بطلها... القرية نظيفة.. جميلة . - تتلألأ فى نهار طاغ.. كل شىء بها عملاق... قباب المسجد

الكبير... المبنى الكائن خلفه.. المبانى الممتدة على جانبى شارع الجامع بدت فى ذاكرة الحلم كأنها قلاع تاريخية... كأنها مدينة أسطورية من تلك المدن التى نقرأ عنها فى قصص ألف ليلة وليلة وليست قريتى كما عهدتها ... قصور وقلاع بيضاء شامخة فى عنان السماء.. بحثت عن بيتنا وسط المبانى العملاقة فلم أجده... لكنى عثرت على أخى... سألته عن صغيرنا... قلت له أن يخبره أنى قطعت السفر وعدت خصيصا لأراه.. وذهب أخى ليأتى بالصغير من منزل أخواله بضواحى القرية... لكنه لم يعد... ضلت أقدامى فى المدينة.. وأشار أحدهم لم أره من قبل إلى قصر شامخ قال إنك بداخله .. هرعت إليك ..لكن فى طريقى إلى بوابة القصر الكبير تلاشت المدينة ببطء من ذاكرة الحلم..!!

وفى سنواتك الأخيرة.. كنت تهتمين كثيرا بفحص كل حلم... وقتله تفسيرا.. فهل لديك تفسير لحلمى..؟!

في الليلة التالية هرولت إلى صديقى حاتم رشوان.. هربا من بؤر الذكرى المؤلمة التى تشتد التهابا مع ولوج

الليل... ليفجر فى داخلى حقول ألغام وطنية كنت قد نسيت معالمها .. حكيت له الحلم.. اكتفى بالقول:

- مجرد هلوسة... نتاج طبيعى لحالة القلق والتوتر والحزن التى تمر بها..

غادرته .. كان حنينى إليك هائلا.. أسرعت إلى الفراش ، ولدى يقين عظيم بأنى سأراك الليلة.. وربما تبزغ المدينة الأسطورية في ذاكرة الحلم مرة ثانية.. وألج القصر الفخم فأجدك تترقبين وصولى... لم يكن لدى وقت لأصاب بالدهشة المفرطة لأننى بالفعل انزلقت سريعا وبنعومة مبهرة فى نوم هادئ دون أن أصطدم بحواجز الأرق وعذاب الذكرى.. هناك استقبلتنى فى كامل بهائك.. ليس فى القصر المسحور... لكن فى شقتنا الصغيرة القديمة... لا يضاهى جمالك بين كل أيامنا .. إلا جمالك يوم عرسنا... كنت بعثا لموديل جمالى... صدرته هوليوود فى الثلاثينيات والأربعينيات إلى العالم... فثمل..!! استعدنا ثانية واحدة من ذكرياتنا المبهجة.. عشناها ثانية ببطء ودقة متناهيتين.. كان الزمن فى

الحلم كونيا... ممتدا كأننى أمضيت مائة عام فى أحضانك ... وحين استيقظت لم أكن حزينا محبطا كطفل عثر على قطعة نقود فى نومه ولم يجدها بين يديه بعدما استيقظ، وربما يبدو الأمر غير معهود .. لكنها هكذا كانت مشاعرى حين استيقظت، كان جسدى وروحى يمرحان فى فيض من البهجة والانتشاء.. كان ارتواء حتى الإفراط... فشكرا .. ألف شكر حبيبتى ..لأنك فى الحلم زرتنى... لكن هل من حقى أن أسألك تكرار الزيارة..؟ تصحبين روحى ساعات الليل.. وقبيل الفجر تنسحبين عائدة إلى عالمك؟! تعالى - فأنت والحياة فى كينونتى توأم.. بل شىء واحد..

***

الشوارع تفيض صخبا .. لكن الصخب فى قلبى مختلف... وربما فى قلوب كثيرة...!!

ومن أسابيع .. وأنا أشعر بالخوف فى داخلى يستفحل من مواجهة رمضان هذا العام... وكنت مثل كل الناس .. يمور الحنين إليه تحت الجلد... بمجرد أن

يرحل!!

ولماذا أخشاه؟!

لأنه... للمرة الأولى فى حياتى ... علىّ أن أواجهه وحدى..!!

أتذكر كل رمضان أمضيناه معا... كنا نهرع إلى كتب الدين والفقهاء.. نسألهم.. عن جيشان الحب فى عيوننا ولمسات أناملنا.. ونبض قلوبنا.

- أهذا يفطر...؟!

أتذكر أمسياتنا مع الأصدقاء.. وحين كان علينا أن نذهب إلى الحديقة وحدنا.. أسألك..

- أما كان علينا أن نرتب مع بعض أصدقائنا لنمضى السهرة معا..؟!

فتجيبين ضاحكة!

- فى الحديقة سنجد مئات الأصدقاء.. الذين لا نعرفهم.. إنه رمضان..!

بالتأكيد هو رمضان.. كل قلب يتحول فيه إلى منتجع محبة مبهر.. يتلاقى فيه الناس جميعا... يتعاطون الحب

بغير قلق... بغير سؤال: هل ثمة مردود لعطائهم..؟!

كم أحبك..

وفى رمضان تتوحدين أنت وصغارنا .. وملايين الناس فى قلبى طفلا طاهرا... مغزولا بالنور والخير... الخير...!!

رمضان شهر الخير..؟!

لماذا هو كذلك...؟!

• فى إحدى الأمسيات حين كنا نتسامر فى حديقة ريام.. كان ذلك فى رمضان قبل الأخير لفراقنا.. تطوعت إحدى الصديقات لتدلى بالتفسير الشائع:

ـ ازدحام الأسواق بالناس.. ومشترواتهم التى تتجاوز ربما كل الشهور الأخرى.. وموائد رمضان العامرة بشتى الأصناف من الطعام.. يفسر لماذا نسمى رمضان بشهر الخير والبركة..؟

كان لديك تفسيرك الآخر المدهش.. قلت:

ـ أعتقد أنه شهر الخير... لأن قلوبنا فى رمضان تكون ثرية جدا بالحب.. سخية فى عطائها... تسبغه على

الناس جميعا... على اختلاف ألوانهم ومذاهبهم بغير حساب..!!

هو شهر الخير..لأن قلوبنا تعمر بالحب.. وليس لأن موائدنا تعمر بالطعام..كنت أود أن أنهض من وسط الرفاق وأضمك زهوا... بهذا القلب الكبير الكائن تحت ضلوعك.. لكن درس الحب هذا الذى علمنا إياه رمضان الكريم.. أرى الآن القلب مفرغا من أبجديته..

***

الأول من رمضان.. أقتل المشاعر وألم الذكرى بالتلفزيون.. مسلسل كوميدى.. كالعادة.. وقت الظهيرة.. أحدهم يأتى بما يضحكنى.. أستجيب ، أشعر بأن ضحكاتى منقوصة.. ليست كعهدى فى كل رمضان.. كنا فى هذا الوقت من النهار الرمضانى.. على تلك المقاعد.. أمام نفس جهاز التلفزيون.. تتوحد ضحكاتنا .. وتعليقاتنا .. أغلقت التلفزيون .. انسحبت إلى الفراش.. أتوسل إلى النوم.. يشفق على فى تردد... بين النوم واليقظة.. يجتاحنى حلم موقن بأنك سوف تتسللين فى

خفة إلى الغرفة.. تجلسين بجوارى... تربتين على يدى فى حنو.

- استيقظ .. المغرب أذن... الفطور جاهز..!!

أستيقظ ألعق دموع وحدتى الموحشة.

بعد صلاة العشاء هرعت إلى إمام المسجد .. دسست فى يده مبلغا من المال كعادتى فى المساء الأخير من كل رمضان.. يفتح دفترا.. يهم بتسجيل المبلغ.. لكنه يتطلع إلى مستفسرا.. أدركت سريعا ماذا يود أن يقول .. أخرجت على عجل حافظة النقود ودفعت إليه بمبلغ آخر:

- عفوا شيخنا .. . فقد أخطأت فى حساب زكاة الفطر هذا العام!!

ولم أشأ أن أخبره... أن أسرتى .. لم تعد بنفس العدد الذى كانت عليه فى الأعوام الماضية..!!

فتحت خزانة ملابسك .. كنت أبحث عن ثياب الصغار... رأيتك .. صامتة داخل كل ثوب... أنت لم تبرحى المنزل قط.. أراك فى نضارة ورائحة الريحان الذى نما على يديك.. فى قوارير عطورك.. حتى عطورى

كانت من اختيارك.. فى كل زرار حاكتة أناملك.. . فى أحذيتك التى ما عادت تخطو...

يشدنى حنين فجائى إلى الدرج الأوسط... منذ عام لم تمسسه يداى... كانت أناملك آخر ما امتد إليه ذاك المساء المظلم بغضبى ويأسى.. حين لملمت أوراق مجموعتى القصصية الثانية.. وقلت لك فى أسى : ضعيها فى المكتب.. أو احرقيها..!!

نظرت إلىّ فى دهشة.. وصرخت فى عيناك:

- لماذا ..؟

- لن أصدرها .. ولن أكتب بعد ذلك..؟

ارتفع مد الصراخ فى عينيك:

- لماذا ؟!

لا جدوى .. كفى أوهاما .. لن أكون مثل برنارد شو.. أو نجيب محفوظ .. أو حتى أى صعلوك فى شارع الأدب.. بالكثير أنا ربع موهوب.. حتى الإرادة والتصميم لا أملكهما لأزاحم وآخذ مكانا بين صفوف الأدباء..أنا لا شىء على الإطلاق!! مشروع أديب مجهض مثلما أنا

مشاريع كثيرة مجهضة..!!

انسحبت بهدوء.. وضعت المجموعة القصصية فى الدرج الأوسط وأغلقته.. لكن عينيك وشفتيك لم تكفا عن الإلحاح:

- متى تفتح الدرج؟!

وها أنا أفتح الدرج بيدين تنزفان حزنا.. أتأمل الورقة الأولى بعد الغلاف

إلى رفيقة عمرى... إلى كل عمرى... زوجتى الحبيبة!!

أتأملها كثيرا.. أعظم كلمات الكتاب صدقا.. أسحب الورقة... أطويها بعناية.. أضعها فى أحد أركان الدرج الأوسط .. أسحب ورقة جديدة... وأكتب:

إلى روحها الطاهرة.. زوجتى الحبيبة!!

* باسكوال دوارتى..هو بطل قصة «عائلة باسكوال دوارتى» للكاتب الإسبانى الشهير «كامليو خوسيه سيلا»الحائزة على جائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٨٩.

سيرة ذاتية لرجل ميت

إهداء...

إلى جنين فلسطيني يتكور في رحم أمــــه.. تتكور أنامله.. على حجر.

نهار آخر عرفت الآن أنه من قائمة عمرى.. عند الفجر .. انغرست خطواتهم بالدهليز جمر رعب فى شرايين العنق.. تطمئننى نهنهة جارى وهم يجرجرونه إلى المنصة.. هتفت : مازال فى العمر يوم آخر.. لا أظنه هتافا أو حتى تمتمة.. فما عادت الشفاه بقادرة على أن تلفظ حرفا..!! حشرجة لم تبرح الحلق.. والحروف دائما منذ أن زجوا بى فى تلك الزنزانة الضيقة مخنوقة. أهو موتى ما يريدون ؟.. فلماذا لا يدسون لى السم فى الطعام.؟ أو يسربون غازا بلا رائحة إلى الزنزانة؟! أظنهم يستعذبون ذلك.. يرصدون جسدى وهو يتقلب ليلا على ألسنة لهب انتظار خطواتهم الرهيبة عبر ممر فجر لا يعلنون عنه أبدا!!

وماذا أفعل بيوم آخر علق بعمرى..!! كانت لدى رغبة.. أن أكتب إليك رسالة عقب صدور الحكم.. ألححت على

حارسى أن يهبنى قلما وأوراقا.. أغويته بمال كثير سيحصل عليه من أخى إن حقق رغبتى.. أمس ألقى إلىّ عبر قضبان النافذة بكراس صغير وسلام من العائلة ..أعاند الآن طوفان النعاس... أتوق إلى قليل من إنسانيتى.. أتمرد على المألوف فى زنازين المحكوم عليهم بالموت... سأظل أكتب لك حتى لحظتى الأخيرة.. لن أسمح لهم بشطر أيامى إن كانت مازالت فى رصيد العمر أيام... إلى لهاث ليلى فزع وإغفاءات نهارية تتفسخ بكوابيس الرعب!!

لدى شعور أن فجر الغد سيطرقون بابى. .كثيرون قبلى سيقوا إلى هناك.. قتلة وخونة وعظماء.. لست من الفئة الأولى.. تذكرين ذلك.. إن كان فى ذاكرتك بقية من رائحتى.. أتذكر أنا يوم أن سقتنى إلى والدك الدبلوماسى السابق للتعرف.

قلت فى زهو:

- محمد أكثر الناس عشقا لهذا البلد.

لم يستقبل توصيفك بارتياح .. قال وهو يتطلع إلى

لحيتى

ـ إياك أن تكون عضوا فى واحدة من هذه الجماعات الدينية المتخلفة.. الناس يظنون أن هؤلاء القتلة هم أكثر الناس عشقا للوطن.

كانت تلك أوامرك.. أن أطلق لحيتى.. قلت لى مرة إنها تشى بجمال رجولى خفى

شهقت وشبح ضحكة مقموعة يطل من بين شفتيك.

ـ محمد !! إنه يرفض حتى عقوبة الإعدام..!!

أعرف سر ضحكتك المقموعة.. ما قلته لك فى بكارة عالمنا المشترك حين كنت تسألينني عن سبب تعاطفى مع دعوة الاتحاد الأوروبى لإلغاء عقوبة الإعدام فى بلادى حتى يبتوا فى أمر انضمامها إلى الشراكة الأوروبية : قلت لك يومها:

ـ ليسوا روادا فى هذا.. أنا سبقتهم بثلاثين عاما.

تزغرد عيناك بالدهشة.. ولحظة ازدهائى الكبرى أن أقول ما يثير اهتمامك.. فزدتُ:

– كنت فى الصف الأول الابتدائى .. وكان هذا يحدث

بشكل شبه يومى... أستيقظ من نومى.. وأتوجه إلى الحمام لأغتسل ..أجده فى انتظارى - كأننى كلينت ستوود أو جون واين.. المنقذ الذى سينتشله من قدره المفجع... أخاله ينظر إلىّ ممتنا ..وأنا أبسط أمامه نعلى الخشن ليتعلق به ثم أنفضه بجوار جدار المنزل..

وتسألينني فى لهفة: عم تتكلم..؟! وأباغتك:

- الصرصور ..دائما كان هناك فى قاع الحوض الأملس صرصور مرهق أمضى ليله يكابد فى الخروج من الحوض.. لكننى قبل أن أنقذه كنت ألهو به قليلا..!!

تضحكين ..وحين كنت تضحكين ..أشعر كأن التقويم الإنسانى يعود سريعا إلى بكارته الأولى .. فتتمدد ذاتى.. لتشغل كل فراغات الكون.. مثلى.. القروى وحيد الخلية.. يفجر خزائن الدهشة والمرح تحت جوانح مثلك.. النموذج الذى ستكون عليه النساء بعد ألف عام من الرقى..!!

لكن حكايا طفولتى لم تكن على الدوام مثيرة للضحك... أتذكر هؤلاء الجزارين الذين كأنهم يترقبون

خطواتى وأنا فى الطريق إلى المدرسة ليلطخوا ذاكرتى بمشـهدهم الدموى... حين يحاصرون بقرة مكبلة ويجذبون بقوة الحبال الملتفة حول أرجلها . وهم يتصايحون فى نشوة ليختل توازنها .. فتهوى ، فيهوى فوقها ذلك الشاب الصغير خالد ريحان بسكينه الطويلة ..ليجز العنق وهو يبسمل ويتشهد.

كان أصغرهم .. وكانوا يلقبونه بالمعلم لمهارته فى الذبح. كانت ملامحه الطفولية وطيبة قلبه ومودته تثير دهشتى.. سألته يوما:

ـ كيف يطاوعك قلبك أن تفعل هذا ...؟!

فقال فى استغراب : ما أفعله حلال..ألا تسمعنى وأنا أتشهد..؟ وحين يرانى غير قادر على فهم ما يقول يستطرد ضاحكا: الناس سيموتون من الجوع إن لم نفعل هذا يا أبا الرجال...!!

لكننى لم أمت جوعا.. وأنا أرفض تناول اللحوم. كانت أمى ترانى الأخ الحنون، حين أقسم نصيبى من اللحم أو الدجاج بين إخوتى. وما كنت أبوح لهم بسرى ، حتى لا

يتسرب الأمر إلى زملاء المدرسة.. فأكون أضحوكتهم..! وكثيرة هى ليالى طفولتى الموبوءة بكوابيس هؤلاء الجزارين.. يكبلون سيقانى بحبالهم الغليظة ثم يشدونها وهم يحاصروننى بزئيرهم المخيف فأهوى.. لينقض على عنقى بسكين المعلم خالد ريحان بسكينه..!! وآخر ما أدركه تلك الإشراقة الطفولية التى تنبثق من عينيه. وبسملته وتشهده وبرودة السكين تلامس العنق لأقفز من فراشى رعبا... فتقفز جدتى من الجوار مبسملة فى فزع.. وتعيدنى إلى حضنها الذى لم يفلح قط أن يكون ملاذى الآمن فى ليالى الفزعة.. أينتظرنى خالد ريحان بابتسامته الودود على منصة شهقتى الأخيرة..؟ أتنتظرنى جدتى بحضنها الحانى على عتبة المجهول لتمنحنى أمانا هناك افتقدته هنا...!! أظنها الآن تترقب وصولى فى شوق .. أنا أيضا أتوق إليها... أما كان طريق آخر غير منصة خالد ريحان..؟!

يا إلهى .. كأننى عن آخر أتحدث ..!! أهو الخوف أم الموت أغزل من كوابيسه رفضى عقوبة الإعدام..؟!

ألبير كامى كان أيضا لها رافضا.. قرأت له كتابا فى هذا الشأن.. لا أتذكر عنوانه.. كان يصب غضبه على المقصلة ومخترعيها وجلاديها.. أمن كوابيس طفولته غزل آراءه؟! وهل تتذكرين ذاك الملتحى الذى اتهمنى بالكفر..؟ كان ذلك خلال ندوة حول أحكام الإعدام التى صدرت ضد ستة عشر معارضا فى دولة مجاورة... ليلتها قال لى ذلك الملتحى: هو والله الكفر بعينه أن تبطل ما شرعه الله: «ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب».

انغرست كلماته فى مفاصلى ارتعاشة خوف... فقلت وأنا أفر من موقفى الحقيقى:

ـ هؤلاء ليسوا قتلة .. فقط اختلفوا مع النظام..!!

لمتنى..

ـ كان ينبغى أن تواجهه برأيك الذى لا تكف عن ترديده: الموت والحياة حق الله وحده... لاينبغى للبشر أن ينزعوه منه.!!

خذلتك.. لم أكن كلماتى التى قلتها مرارا: أنت وطنى.. ومع الوطن لا مجال للخوف.. وما بالغت أبدا.. انتزعت

من داخلى الخرائط القديمة للوطن التى رسمتها «صوت العرب».. ورسمت لى وطنا آخر، مفصولا عن باقى الأوطان بخطوط رفيعة متسامحة.. نقية من خنادق المواجهة.. مزودة بمرشحات لا تصب على الطرف الآخر إلا الحب.. علمتنى أن كل البشر صفرا وبيضا وزنوجا.. يهودا وبوذيين هم أبناء جلدتى.. وأتذكر فى بكارة عهدنا الفكرى حين انفجرت عفويتى ثورة غضب على شمعون بيريز الذى أرسل طائراته لتغير على مقر لقوات الأمم المتحدة فى قانا بجنوب لبنان لاذ به مئات من الأهالى المفزوعين .. قلتِ فى هدوء حذر:

- ألا يمكن لو حصل هؤلاء الناس على الأمن والأمان أن يكونوا أكثر البشر لطفا وتسامحا..؟!

أعترف ..اصطدمت عبارتك بجغرافيتى القديمة الصارمة التى لم تكن قد زالت من داخلى تماما .. شهقت فى دهشة:

- شيلوك يتسامح..!!

فتواصلين مباغتتى:

- أظنه كان شخصا بائسا ..خشى أن تضيع حقوقه... فى مجتمع يكن له ولأبناء دينه الكراهية.. فغالى فى شروطه حتى يضمن أن التاجر سيعيد إليه ما اقترضه.

كان همسك الناعم.. وأنت تنظرين سكينا تمزقنى أشلاء ولا أحد فى منفاى الصحراوى يعيد صياغتى من جديد سواك.

وحين ملأت استمارة العضوية فى المنظمة العالمية للسلام باغتتنى بقبلة مباركة وأنت تهتفين: الآن أصبحت مواطنا حقيقيا ..!!!

تلميذ تستعر شهوته إلى المعرفة كنتُ.. وكنتِ مصدرى الأوحد لمعرفة ما حُجب عنى.. وبك كنت مزهوا .. غيورا... فى قاعات الفكر والسياسة أتابعك.. وأنت تشيعين حضورك النافذ خدراً أثيريًا تحت الجلد .. هذا الضى الآسر الذي يترقرق فى مسام وجهك.. وأناملك البيضاء الرقيقة وهى تزيح فى حركة طفولية خصلة الشعر الناعمة التى لا تكف عن مشاغبة عينيك..ولا أصدق أن طوفان الفكر الذى يتدفق فى رؤوسنا ثراء

منبعه ذلك الرأس الصغير..

تسألينني مرة: كم عمرى كما تظن؟!

قلت : دون كل النساء تملكين أكثر من عمر.

تتطلعين إلىّ باهتمام..فأسهب فى نشوة...

عمر البراءة فيك من عمر طفلة فى الخامسة .. وعمر العاطفة من عمر شابة دون العشرين لكننى أراك فوق منصات الفكر والثقافة.. عجوزًا فى السبعين أمضت حياتها ترصد وتتأمل وتخزن.. لتعيد خزينها إلى البشر هداية وحكمة.

تنطلق ضحكاتك فى عذوبة فأصيح.

- شمس لا تهرم أبدا .. هكذا أنت حين تضحكين..؟!

وكأننى وضعت يدى على أهم حقائق الكون.. فأردد فى نشوة.

- نعم - هذه حقيقة .. وجهك الرقيق هذا مقاتل شرس.. لا يستسلم لعوامل التعرية أبدا ..إن شاخت الشمس ..شاخ وجهك..!!

وأباغتك:

أود أن أقابل أباك..!!

- دادى..؟!لماذا؟!

- أود أن أسأله..إن كان قد استحم بغذاء الملكات ليلة أن وضع حجر أساسك؟!

فيضج وجهك بضحكة دهشة تنبثق وسط بحيرة من حمرة الخجل..!!

لكن فوق المنصات.. تبدو ملامح الوجه محايدة وأنت تتحدثين حتى عن دقائق الجنس .. فإن اشتبكت مع أحدهم فى حديث انزلقت فيه إلى مناطق وعرة تشكلين من أى من اللغات الأجنبية الأربع التى تجيدينها خندق حماية.. ورغم حيرتى إلا أننى أخذت أحاكيك.. وكان ذلك يروق للنساء.. أن ألج آذانهن بأى قول... مهما كان فاحشا.. المهم أن ألفظه بالإنجليزية عبر وجه محايد...!!

علمتنى الكثير.. بل كنت كلمة الله التى غشتنى فى تلك الظهيرة من ثمانية أعوام.. حين استدعانى عميد الكلية.. وكنت فى مقعدك ضوءا إنسانيا مقطرا من كل شوائب الأرض والبشر..

– الأستاذة لينا شوكت .. باحثة فى مركز الشرق الأوسط للدراسات السياسية، محمد عبدالغالى..أنشط المعيدين فى الكلية.

مددت يدى..ودون أن تبارحى مقعدك مددت يدك.

شىء من النفور كدر داخلى..!! لكننى بعد ذلك عرفت الأصول.. ألا تنهض المرأة من مقعدها حين تحيى رجلا .. فقط تكتفى بمد يدها .. وعرفت بعد ذلك كم كنت جاهلا بالأصول .. كان ينبغى أن ألثم أناملك بقبلة هامسة.

عرفت أمورا ما كنت أدركها من قبل... كنت وعد الله لى بالمعرفة بالفكر .. بالحب..!!

ستة أشهر أمضيتها فى رحابك.. أنجز ما تطلبينه منى.. . كان البحث الذى أشاركك فى إعداده حول حزب الأغلبية الصامتة.. كان سؤالا محيرا نبحث عن إجابة له: لماذا الناس هكذا .. لا يشاركون فى اختيار من يمثلهم فى البرلمان والمجالس المحلية.. وحتى الرئاسة . وكنت أسألك ما أهمية هذه الأبحاث؟ وكنت تقولين:

– التغيير ..معرفة الأسباب بداية الحل.

ويوما صارحتنى.

- هدفنا رسم خريطة جديدة للوطن.. وهذا فى حاجة إلى سنوات من البحث والدراسة ونشر الوعى وتغيير الأفكار. وكنت أسأل:

من تقصدين بهدفنا؟ أعنى مع من نعمل؟!

وترددين بغموض:

العالم الآن يتغير كليا.. وإلى الأفضل.. علينا أن نكون جزءا من هذا العالم الجديد!!

وألح:

- ومن سيفعل هذا؟!

وتجيبين:

- أناس على مستوى عال جدا من الوعى ورحابة الفكر.. أنت فى طريقك إلى أن تكون أحدهم..

وبدأت أتماس بدهشة مع عالمك... أمك رئيسة جمعية الصداقة المصرية الكندية... والدك الدبلوماسى على المعاش ومؤسس منتدى البحر الأوسط .. خبراء مركز الشرق الأوسط للدراسات الذى تعملين به... مستر فيدل.

لكن ما زلزلني.. أن أفاجأ بنفسي وجها لوجه أمام رجل اسمه عيزرا... ويتعين على مصافحته..!! كان ذلك في حفل شاي بمنزلكم الفخم.. وللمرة الأولى منذ أن تماس عالمي الخاوي مع عالمك الثري أصيح في وجهك فزعا:

– عيزرا ..؟! لماذا؟

قلت بهدوء:

- لو اقتربت منه. لن أقول إنك ستحبه. على الأقل لن ترفضه..!!

أصرخ في لوعة:

– لكنه إسرائيلي..؟!

- من الناشطين في حركة السلام الآن؟!

- أليس إسرائيليا.. أين يعيش؟! في بيت اغتصبه من صاحبه الفلسطيني..؟!

ولا يفارقك هدوؤك:

- عيزرا مولود في يافا.. مثل كل آبائه وأجداده.. ليس غريبا عن فلسطين ..إنه مؤمن بضرورة انسحاب إسرائيل

من الأراضى المحتلة.. وإقامة دولة فلسطينية .. لا ينبغى أن نرفضه... حركة السلام الآن تمثل عنصر ضغط على الحكومة الإسرائيلية ..ولو تشكلت حركة مماثلة هنا... لكان ذلك فى صالح قضية السلام.

ولا أكف عن الصراخ: إلا عيرزا!! بل تجرأت مرة وطلبت منك أن تلقى به خارج دنياك التى أصبحت دنيايا..

فهمست ضاحكة: غيرة..؟!

قلت فى انفعال:

نعم.. وأشياء أخرى؟!

– غيرة .. نعم..هذا يسعدنى..أشياء أخرى ـ فهذه تتطلب أن أوضح لك أمرا.. أنا وعيزرا نؤلف كتابا معا عن الشرق الأوسط بعد السلام..؟!

ـ وأين هو هذا السلام..؟

ـ صدقنى .. هؤلاء الناس فى حاجة إليه أكثر منا.. عيزرا نفسه يقول ذلك.. إحساسهم بالخوف وعدم الأمان هو الذى يجعلهم يتعاملون مع الفلسطينيين بشىء من

القسوة.

– بشىء..!! أمس هدموا أربعة عشر منزلا فى غزة.. وقتلوا ثمانية فلسطينيين من بينهم طفلة رضيعة..!!

ـ ها أنت تتحدث بطريقة وعاظ المساجد.. اسمع.. على الطرف الآخر أناس لا يعجبهم ما يحدث..وينبغى أن يكون لدينا أشخاص مثلهم.. هؤلاء هم الذين سيضعون فى النهاية السلام.

أكان ينبغى علىّ أن أنسحب؟! فكرت فى هذا... بل أمضيت يومين فى مكابدة لا أهاتفك..وحين التقينا مصادفة فى إحدى الندوات.. لم تكن مصادفة. أعترف. كنت أعرف أنك هناك.. فأتيت .. تساءلت فى هدوء:

– أكنت فى البلد..؟!

كان ينبغى أن أصرخ لا.. لم أغادر القاهرة.. لكننى لا أود أن أراك..إلا إذا اغتسلت من عيرزا هذا.. ولم تطرحى أسئلة أخرى... واستكنت أنا فى لحظة ترقب أوامرك.. ليراودنى ذلك الخاطر أننى رجل ضعيف.. مهزوز..

حين منح معلم اللغة العربية جارى فى تختة السادس الابتدائى الدرجة النهائية فى التعبير واكتفى بمنحى ٦ من ١٠ زعق داخلى بموار الظلم .. وطوال الطريق إلى المنزل وأنا نهب لأحلام اليقظة.. أصرخ غاضبًا فى وجه معلم اللغة العربية: لدى أسلوب فى التعبير يفوق أسلوبك.. وأسلوب ناظر المدرسة. لكن للأسف ليس لدى حظيرة من البهائم مثل جارى فى التختة أشبع بلحومها وألبانها نهم كرشك..!! كنت عنيفا. جسورا. فقط فى أحلام يقظتى..

استكانة جينية انتقلت إلىّ من أمى التى لفظها أبى من حياته .. وألقى بها وبى فى غرفة صغيرة .. وكانت تتطلع إليه بامتنان عبودى.. لما يلقيه إليها من قروش قليلة كل شهر..!! وأيضا كنت لا أكف عن مواجهته صارخا غاضبا.. أنت ظالم ..ظالم!! فقط فى أحلام يقظتى..!!

ألهذا أنصاع لك..؟!

ربما .. لكن ثمة يقين آخر.. أنت ..أول هرمون أنثوى

تعبق روائحه فى روحى جنونا وهوسا.. قبلك لم أتماس قط مع عوالمهن.. بل تلك العوالم .. بدت أحيانا حلما مستحيلا.. لا وجود له إلا فى أشعار إبراهيم ناجى وأبى القاسم الشابى.. وأفلام الأبيض والأسود .. كنت أراهن.. صبايا قريتى.. أشعة شمس تتناثر قصائد شعر دافئة على السكة الزراعية فى ساحات قريتى الشتوية.. كنت أراقبهن.. وهن يتهادين فى طريقهن إلى المدرسة أطياف جمال تهبط من السماء كل صباح لتغادرنا فى الظهيرة.. ولم أصدق قط أنهن كما الرجال خلقن من وحل... بل من أنفاس الملائكة تناثرن ليخصبن الحياة بالطهر..!!

لم ألتق بهن قبلك.. حتى الدراسة الجامعية كانت فى معهد للذكور .. والعمل معيد فى ذات المعهد.

إلى أن التقينا.. كنت يقين واقع أكثر سحرا من أطياف الصبا فى قريتى.

ولا أصدق ..أنا محمد عبد الغالى الذى تيبس ظهره من ليالى التمدد على قبة فرن الفقر.. فجأة يشغل حيزا

فى مجالك الحيوى... يتنفس من زفيرك.. يقول ما يثير اهتمامك.. لينا الغريبى..شهد النساء.. سليلة العائلة الكبيرة مالا وفكرا وجاها... أغازلها؛ فتطرب . أقول لها أحبك فلا تغضب.. بل .. من يدرى.. ربما .. ربما.. كانت أيضا تكن لى ذات الشعور.

أليس هذا دافعا ألا أطيق عيرزا فى عالمك..!!

وكنت تجيدين قراءتى .. تعلمين أننى أوهن من أن أتخذ قرارا بالابتعاد.. قلت فى هدوء:

ـ مستر فيدل يسأل عنك..!!

ـ لمَ؟

ـ لا أدرى .. سيكون فى انتظارك مساء الغد بغرفته فى الفندق.

يطالبنى بتأسيس مركز لثقافة السلام... عرضت عليك الأمر.. أبديت دهشتك.

ـ لم يفاتحنى فى هذا؟!

ـ ومارأيك؟!

ـ فيدل لم يعد يعجبه على ما يبدو نظام القطعة قطعة..

يريد مركزا يضم باحثين وخبراء في ثقافة السلام.

- كأنك توافقين؟!

- هذا أفضل لعملكم الذى على ما أظن تضخم.. وفى حاجة إلى مقر وسيستم.

وكنت مؤرقا بهاجسين: السلطات هل توافق..؟ وكان رأيك أنها ستوافق.

- أنت الآن شخصية جديرة بالثقة على المستوى الداخلى.. لو تقدمت بطلب ترخيص لن يمانعوا.

- وماذا عن فيدل؟ ماذا لو عرفوا أنه وراء المشروع؟

- فيدل مجرد زبون يشترى أبحاثك.. كما أن أصله الجواتيمالى جعله بعيدا عن الشبهات.. شخصية كاثوليكية ، محافظة ، لا علاقة له باليهود..!!

وكان الهاجس الثانى من أين لى بمال التأسيس؟ سألتك.. وفوجئت بك تسألينني في دهشة

- ألم يقل لك فيدل شيئا بهذا الخصوص..!!

- وما علاقة فيدل بذلك..؟!

- طالما هو اقتراحه.. فعليه أن يساعد!!

انتابتنى رعشة مفاجئة :

– يساعد ..؟! ألا يثير ذلك قلق السلطات؟! تمويل أجنبى لإنشاء مركز حول أبحاث ثقافة السلام..؟!

ـ ليس تمويلا.. سمه عربون صفقات قادمة.

ولم أنتبه ..أعمانى القلق عن مغزى عبارتك الأخيرة.

أفعلوها من قبل مع آخرين.. فى دول أخرى..؟! هذا بالضبط كان عرض فيدل... وزاد: دورة فى جامعة ألمانيا حول كيفية إدارة هذه المراكز..؟!

وحزنت لأننا دشنا المركز خلسة.. بعيدا عن أعين الصحافة.

طلبت من فيدل حفل افتتاح صاخبًا.. لكنه انزعج.. وأنت أيضا أبديت انزعاجك.. وقلت ما قاله فيدل.

ـ مازال الرأى العام يرى فى هذه المشاريع أعمالا غير وطنية.. كثير من الناس مازالوا يحتفظون بالخرائط القديمة للوطنية.

وطبعت على جبهتك قبلة عرفان... لولاك لبقيت مثلهم.. خريطة الوطن القديمة.. بوصلتى نحو أرائى

الخاطئة.

انهالت العروض والأموال.. الكونجرس الأمريكى يطلب أبحاثا.. الاتحاد الأوروبى.. منظمات لم أكن أعرف لها وجودا من قبل.. وأثبت فيدل أنه مندوب مبيعات رائع لأبحاث ثقافة السلام.. وقتلتنى الحيرة.. كيف أكافئه.. سألتك.. نظرت إلى للحظات فى تأمل.. ثم قلت: أظنه يقتطع نصيبه من المنبع..

قلت:

- لست عن نصيبه أسأل.. بل عن مكافأته.. لولا دعمه المادى والمعنوى ..ولولا شطارته فى تسويق الأبحاث.. لما حقق المركز كل هذا النجاح.

- اعرض عليه الأمر..!!

وفاجأنى:

- إن كنت تريد حقا مكافأتى..أنجز لى هذه الدراسة..!

- حول..؟!

- تصورات ضباط الجيش لما ينبغى أن يكون عليه السلام فى المنطقة.

شهقت فى فزع : ماذا تقول..؟!

واصل دون أن يبالى بفزعى:

- الدراسة تطلبها منظمة أمريكية مكلفة على ما يبدو من البيت الأبيض لوضع إطار تسوية سلمية.

- وما علاقة رأى العسكريين بتسوية النزاع.

- فهم موقف العسكريين مهم جدا فى دولة مثل دولتكم يحكمها العسكر.. وإسرائيل فى هذا لا تختلف ..أقوى مؤسساتهم هى المؤسسة العسكرية.. معرفة رأى هؤلاء ضرورى لصياغة مشروع للسلام..!!

وكانت أسئلة البحث جمرات قلق..

- هل توافق أن تشارك مصر فى حرب ضد إسرائيل إذا هاجمت سوريا؟!

- هل توافق على أن يقوم عسكريون مصريون بعلم قيادتهم أو بدون علمها بمد الفلسطينيين سرا بالسلاح.؟!

- ما هى مصادر الخطر على الأمن القومى المصرى من وجهة نظرك؟!

- هل تعتقد أنه يمكن أن يأتى الوقت الذى يحارب فيه

الجندى المصرى والجندى الإسرائيلى جنبا إلى جنب ضد خطر خارجي يهدد أمن المنطقة..؟!

- هل توافق على عمل عسكرى على شاكلة حرب ١٩٧٣ لإجبار اسرئيل على الانسحاب من الجولان..؟!

لذت بك . لتعيننى على اتخاذ قرار.. قلت بعد لحظات من التفكير:

- أظن أن فيدل محق.. هؤلاء الناس حين يخططون لشىء يضعون فى اعتبارهم كل الاحتمالات؟! كيف ينهمكون فى إعداد مشاريع للسلام، ويتجاهلون قوة محورية فى الصراع ، مثل العسكريين..؟!

وحضر فيدل جزءا من الحوار ..بل جاء مسلحا.. حيث أخرج من حقيبته مغلفا.. سحب منه ورقة..وقال وهو يبسطها أمامنا:

- هذه خطة بحث مشابه تعده جماعة السلام الآن فى إسرائيل لحساب المنظمة الأمريكية.

سألته فى قلق:

- ألم تتدخل الحكومة فى القدس.. وخاصة أنها حكومة

يمينية؟!

ضحك فيدل ربما لسذاجتى.. وقال موضحا:

- نظرتهم فى القدس تختلف عن نظرتكم هنا فى القاهرة.. إنهم يستثمرون مثل هذه الأمور .. نتائج البحث ستظهر بالطبع مدى تشدد المؤسسة العسكرية. سيلوحون بهذه الورقة فى وجه الإدارة الأمريكية : نعانى من ضغوط العسكريين والمستوطنين والحاخامات.. تقديم التنازلات فى أية تسوية يعرض إسرائيل لحرب أهلية.. تلك لعبتهم ، إنهم لا يقلمون أظافر المتشددين لديهم كما كنتم تفعلون.. بل يسنونها كلما تطلبت الحاجة ذلك، لكن أظن أن السلطات هنا أصبحت على قدر كبير من النضج.. لذا لو عرفوا بأمر هذه الدراسة فسوف يغضون الطرف.. خاصة حين يدركون أنها تصب فى صالح السياسة العليا للدولة.

وكنت تهزين رأسك مباركة لما يقول فيدل الذى أضاف:

- حين ينتهى هذا الصراع ستكشف الملفات عن أمور

كثيرة مضحكة!!

رددت فى استهجان:

ـ تلك المأساة التاريخية تنطوى على أمور مضحكة..؟!

فقال ضاحكا:

ـ هل تصدق .. أكبر مصادر تسليح حماس والجهاد الإسلامى هم المتطرفون اليهود..!! اليمين الإسرائيلى أكثر الناس ابتهاجا بالعمليات الانتحارية الفلسطينية.. إنهم يستخدمون الدماء النازفة بهذه العمليات فى كتابة منشوراتهم المتطرفة: الموت للعرب...!! بل حتى كولونيلات جيش الدفاع متورطون فى صفقات بهذا الشكل.

وتنتهى: ياصديقى السياسة لعبة قذرة.. حركة السلام الآن أدركت هذا مبكرا..

أتمتم فى قلق:

ـ وجاء الآن دورنا..!!

لكن قلقى سرعان ما انقشع.. حين فوجئت بجهة رسمية تعرض على المركز إجراء دراسة حول مشاركة المرأة المصرية فى العمل العام.. كان ذلك دليلا على أن

صفحتى فى الملفات الرسمية ناصعة البياض..

وبدأت فى إجراء البحث الذى طلبه فيدل.. لكننى أسندت المهمة إلى الباحثين المقربين.وأصدرت إليهم تعليمات مشددة بأن يتوخوا الحذر.. فلا يطرحون أسئلتهم إلا على من يعرفون من العسكريين.. أصدقاء ..أقارب.. على أن يكون طرح الأسئلة عبر أحاديث عادية لا تشى بأمر البحث!!

ويطلب فيدل معلومات عن البنية الأساسية لصناعة أسلحة التدمير الشامل..

- لحساب معهد الدراسات الاستراتيجية فى لندن.. إنهم يعتزمون إصدار تقرير خاص حول الأسلحة غير التقليدية فى العالم..!!

وكان دبيب القلق فى هذه المرة أقل صخبا..أهى الإنجازات السابقة التى تمت.. لا أظن بعيدا عن عيون السلطة..فظننت أن نشاطنا يتدثر بدفء الشرعية!!

وما كان حلم يقظة ..وأنا ألملم هذا القرار الجسور..

الليلة سأحاصرك يالينا بأعظم أحلامى. أعظم من أى

حلم إنساني.. لينا: أريدك زوجة لى..؟! ولا أدرى من أى نبع فولاذى أستمد تلك القوة..

وما ارتجفت وأنا ألملم قرارى.. ولن أرتجف ..وأنا ألقى به على مسامعك.. بل لن أسمح لك أبدا فى أن تمارسى معى فى تلك الليلة سياسة الباب الموارب: نعم - أو لا ؟

هذا ما سألح عليه..؟!

أهو نجاح المركز .. وتردد اسمى عبر أجهزة الإعلام.. أكثر حتى من أى لاعب كرة.. أو نجم سينما..؟ ربما .. إننى الآن أملك القوة أن أنهض من سجدتى تحت قدميك.. وأجلس بجوارك على عرش عالمك الأسطورى .. كان موعدنا السادسة والنصف فى مكتبى لنتوجه معا إلى مكتب المفوضية الأوروبية لحضور ندوة حول قبول الآخر.. لم أبرح مكتبى طوال الظهيرة.. أشعر بكيانى يتمدد تحت عقرب الساعات ليطحنه فى وحشية ببطء حركته.. فى الخامسة ضغطت على أرقام هاتفك بالمكتب .. قلت لى إنك ستمضين الظهيرة هناك لكتابة مقال

لجـريدة الإندبندنت .. سـرسـوب كلمـاتك يسـيل داخلى إحساسا بالتفاؤل.

ـ أنهـيت المقـال... سـأكـون فى مكتـبك السـادسـة والنصف كما اتفقنا.

يداهمنى فى عليائى صوته الآتى من بعيد.. لم يكن يعلم على ما يبدو أنك تتحدثين عبر الهاتف: لينا..ألن نستحم..!!

صمت الهاتف..عاودت الاتصال.. حاولت طمأنتك.

– لا تتأخرى يا لينا..إذا لم تتمكنى من الحضور فى السادسة والنصف .. سأذهب أنا ، ونلتقى هناك.

ترحبين بالفكرة ..بدا صوتك طبيعيا.. لم يساورك الشك فى نواياى.. كانت سيارتك قابعة خلف المكتب الكائن فى الدور الأرضى.. كانت النوافذ مغلقة.. والنور مطفأ.. وثورة آهاتك تقصف بخرائطك فى داخلى.. يعقبها صمت ثقيل يمزقه مرة أخرى همس خدرك.

Why did shoot inside me?

يشدد من قبضة أنيابه:

ـ هل تصدقين .. خلتك للحظة هاجر.. وأنا إبراهيم .. فراودني خاطر غريب: لم لا يكون نسلا آخر أكثر قدرة على الحب..؟!

فزعت إلى السيارة.. ألقيت بجثتي فوق المقعد.. انطلق إلى الإمام عبر الزجاج المضبب.. أدرت المحرك.. حركت المساحات.. إلى أين..؟! إلى الندوة.. اقتحم المنصة وحشًا جريحًا أطعنهم بالحقيقة.. لينا استسلمت.. لينا منحت عيزرا غشاء بكارة الوطن!!

ربما يحتج رجل مهذب في إحدى زوايا القاعدة ويهتف: جلف..!! ويده تعبث تحت سروال جارته المخملية.. تنتفض الجثة.. تتوحش.. أتطلع إلى النافذة التي يسطر خلفها صك نهايتي.. تتدهشني قدماي وهما تخطوان نحو مؤخرة السيارة بثبات.. افتح الحقيبة.. أسحب «كوريك» الإطارات.. اتجه إلى مدخل العمارة.. خلف جدار السلم أقبع.. دقائق.. ساعات.. أشهر.. سنوات.. أشعر أن هذا هو زمن عمري الحقيقي.. ينفرج باب الشقة.. همسات متداولة لم ألتقط منها سوى:

شالوم.. شالوم..!! ثم صوت الباب وهو يوصد.. أتبعه بهدوء.. أباغته بضربة قوية فوق رأسه.. يهوى.. ألا حقه بضربات أخرى.. كم؟ لا أدرى.. أنسحب بهدوء إلى السيارة... ضغطت على البنزين.. أتخذت طريقى نحو المنزل وقرار لالبس فيه: أن أتوجه صباحًا إلى إدارة المخابرات العامة لأتقيأ خرائط الوطن الجديدة.. لأتطهر من لينا وفيدل وعيزرا.. لكننى وجدتهم هناك.. خلف الباب.. يترقبون وصولى..!

محمد القصبى

القاهرة: فبراير٢٠٠٣

المحتـوى

- هذيان على قبرها ....
- سيرة ذاتية لرجل ميت ....

صدر مؤخرا عن (أصوات أدبية)

٣٥٠-طريق مفتوح ف ليل أعمى .... طاهر البرنبالى

٣٥١- الغنا ف عز السكون .... محمود الشاذلى

٣٥٢- ظل ليس لك .... عماد غزالى

٣٥٣- عرض مجانى للجميع .... أحمد الشيخ

٣٥٤- عرس النار .... أحمد سويلم

٣٥٥- قصاقيص الهوى .... محمد قطب

٣٥٦- غيوم الدم .... بدر توفيق

٣٥٧- وأهدرت الأيام دمى .... جميل عبد الرحمن

٣٥٨- زائر النهار .... حسن الجوخ

٣٥٩- عيد ميلاد سيدة النبع .... حلمى سالم

٣٦٠- أجداد وأحفاد .... يوسف الشارونى

٣٦١- اسمى ليس أنا................ محمد سليمان

٣٦٢- ممر عميان الحروب .... مؤمن سمير

٣٦٣- هذيان على قبرها .... محمد القصبى